BOBST LIBRARY
3 1142 02908 1729

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

شبابٌ وغانيات

وأقاصيص أخرى

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

محمود تيمور

Taymūr, Maḥmūd.
Shabāb wa-ghāniyāt

شباب وغانيات

وأقاصيص أخرى

الناشر
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

Near East
PJ
7864
.A5
.S43
c.1

الطبعة الأولى — ١٩٥١

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

شباب وغانيات

١

نشأتُ فى أعقاب القرن الماضى ، القرن التاسعَ عَشَرَ ، يتيماً لا أرى لى أباً ولا أمّا ، وعشتُ مع أخى وزوجتـه فى منزل الأُسرة الكبير بـ « الحمزاوى » ، يقوم على شئوننا خَدَم كثير . وكنت أشهد الزُّوَّار لا ينقطعون عن زيارتنا فى صيف أو شتاء ، ومنهم من يقضى فى ضيافتنا الأيامَ والأسابيع .

وكان المنزل أشبَه بالقلعة العتيقة ، له سُور شاهق ، ومخابىء مرهوبة . وهو يَزْخَر بأثاث فخم تحتويه حجرات رحيبة ذات سقوف عالية تملأ النفس من روعة وجلال .

أما الحديقة ففير منسَّقة ، تكتظُّ بالأشجار الكبيرة ، وتتوسطها نافورة دَبَّ فيها البِلَى ، فتهدمتْ منها الجوانب ، وغاض بعضُ ما لها من بهاء . ولكنها مع ذلك لم تفقد جاذبيتها التى تستهوى القلوب وتستلفت

الأنظار . وقد جعل البستانيُّ حولها مرتعاً للبط والإوَزّ، يظل طول يومه سابحاً فى الماء سِرْباً خلفَ سرب ، فى غبطة ومراح ، مردِّداً صيحات يستجيب لها الطير على أفنان الشجر بالأغاريد . وغير بَعيدٍ من تلك النافورة تقوم ظُلَّة خشبية عَفَّى عليها الزمن ، تُشْعِرك بما بقى فيها من جمال ورونق أنها كانت فى سوالف السنين مسرحاً لألوان من الأنس والمتعة والنعيم .

وكان « حمادة » أخى لأبى ، يَكْبُرُنى بثلاثين عاما ، وكنت أخشاه وأتجنب لقاءه جهد ما أستطيع ، فإن نظرة واحدة منه جديرة أن يَرْجُفَ لها قلبى رعباً . ولم يكن الخدم بأشدَّ شجاعة منى فى لقائه ، فهم إذا سمعوا على البُعد وَقْعَ خطاه الثقيلة المتزنة تسللوا لِوَاذا .

وكانت زوجته «مَوَدَّة هانم» التى أناديها بأمى ، تحبه وتجله ، حتى إنها تُحَكِّمُهُ فى مالها كله، ولا تحاسبه فى شىء منه ، وهى تعلم أنه أضاع صفوةَ ما يمتلك ، قبل أن يكون لهـا زوجاً . ولم تكن قد رزقتْ منه بولد ، فاتخذتنى ابناً لهـا ، وأغدقتْ علىّ من حنانها وتدليلها ما أنسانى يُتْمِى ، فأحببتُها حبًّا عميقاً ما أحسَب أن الأبنـاء يدخرون أكثرَ منه للأمهات .

وكانتْ لى حاضنة حبيبة إلىّ اسمُها «مسرّات» نُوبِيَّةُ المَنْبِت ،

غليظة الجسم فى تَرَهُّل ، شَدَّ مَا أعاكسها فلا يهون عليها أن تؤذينى لحبها إياى ، وحين يبلغ منها الضِّيق كل مبلغ تَهِيجُ حماقتها الجامحة ، فتَنْحِى على وجهها ضرباً وشدّا .

وكان للبستانىّ مساعد يدعى « العَيُّوطى » وهو غلام على هيئة « الغوريلا » مجعَّد البشرة ، له صوت خَشِن ، وسَمْلة مزعجة ، وله نظرات غريبة تنفُذ إلى صميم قلبى وتهزّنى . وعلى الرغم من كراهيتى له كنتُ أستجيب لما يريدُنى عليه ، فأسرِق لفائف أخى طاعةً له ، وأدخّن معه فى الحنايا المهجورة من الحديقة . وكانت تَغيظنى منه نظرات الاحتقار التى يُصَوِّبها إلىّ ، وتلك اللهجة العنيفة التى يخاطبنى بها . وقامت بنفسى أمنية عزيزة ، هى أن تتاحَ لى فرصة طيبة ، فأتناولَ عصاً غليظةً لأنهالَ بها عليه أشبعه ضرباً .

وعصرَ يوم من الأيام ، فاجأنا أخى ونحن فى الحديقة ندخن ، وسرعان ما حكم علىّ بالحبس فى مَخْزن الوَقود القصىّ ، معتزِماً أن يتركنى فيه عامةَ الليل ، فقذف بى فى المخزن ، وأغلقَ بابه علىّ ، فإذا هو حجرة قذرة ليس فيها إلا كُوَّة عالية ينفُذ منها الضوء مُجْهَدا هزيلا . ولم أشعر بادئَ الأمر بالوحشة ، إذ قَدِمَ بعض الخادمات يسامرننى خلفَ الباب ، ولما تفرَّقْنَ عنى ، وأحسستُ الوَحدةَ الراعبة ، ورأيتُ

الظلمة تحتشد ، خُيِّلَ إلىّ أن عيوناً حُمْراً يتراقص منها الشرر متوثِّبة حوالىّ ، وأنى أسمع زمزمة مخيفة تُصِمُّ أذنى . فانبعثتُ أبكى وأصرخ مستغيثاً بزوج أخى وحاضنتى ، وأنا متشبثٌ بالباب مطبَق العينين .

وطرق سمعى جلبة فى الدار ولغط ، ثم تبينت أنهم أرسلوا « الأغا » ليطلب المفتاح من أخى ، وكان فى زيارة لأحد أصدقائه من الجيرة ، وسمعتُ زوج أخى صارخة تستحثّ الخدم على الإسراع ، وهى مطلة من نافذة حجرتها العليا ، تقول بين فترة وأخرى :

أدركوه . . . سيموت الولد حتما !

وسمعت كذلك حاضنتى « مسرّات » ، وهى على مقربة من باب المخزن ، تبكى تارة ، وتطمئننى طورا . . .

و بعد فترة جِيء بالمفتاح ، فما إن أحستُ بالأيدى تتلقانى حتى خارت قواى ، وسرعان ما وجدتُنى على سرير زوج أخى ، وهى بجانبى تُنْشِقُنِى عطراً منبهاً ، وتَنْضَح وجهى بماء الورد ، فتعلقتُ بها أتوسل إليها ألّا تبرح مكانى ، فأخذتنى فى حِضْنها ، وأكدت لى أنها ستُبقينى فى فراشها ليلتى هذه . وأحستُ يَدَى الحاضنة « مسرات » تَدْلُكَانِ قَدَمِى . وكان جوُّ الحجرة مُشْبَعاً بالبَخُور ، فشعرت بتخاذل يسرى

فى أوصالى ، فيبعث فيها الراحة والطمأنينة ، ولم ألبث أن أرخيت جفنى ، واستغرقتُ على الأثر فى نوم عميق .

وفى غدٍ أخـذتنى « مودَّة هانم » من يدى ، ومضتْ بى إلى الردهة ، حيث يتناول أخى قهوة الضُّحى ، وقالت لى :

أَقْبِلْ يا « سامى » فَقَبِّلْ يدَ أخيك مستسمحاً .

فأذعنتُ لأمرها ، وانصرفتُ من لَدُنْ أخى مرضِيًّا عنى .

وعلمتُ بعد ذلك أنهم طردوا « العيوطى » من الدار ، بعـد أن أوجعوه بضربات حاميـة على رجليه ، فـكأنَّ حملًا ثقيلًا انزاح عن عاتقى ، بيد أنى وَدِدْت لو شهدتُه وهو ممدَّد يتلقى الضربات الموجِعة ، شفاءً لنفسى منه .

وكان الشيخ « الزينى » معلمى الذى لقننى مبـادئ القراءة والـكتابة ، يَفِدُ صبحَ كل يوم ليلقى علىّ درسه الراتب ، وهو رجل أعمشُ ، قصير القامة ، بدين كأنه كُرَة من الشحم ، كثيراً ما تأخذه سِنَة النوم أثناء الدرس ، فَيَدَعُنى فى الحجرة ألعب بلا رقيب . وكان مشغوفاً بالقهوة يطمع أن تتلاحقَ له أقداحُها فى الفينة بعد الفينة ، ولذلك لا يفتأ يناصِبُ الفرَّاشَ العِدَاء فى شأنها .

وكانت الحجرة التى نجلس فيها للدرس مَنْظَرة لها مكانتها فى الدار ،

إذ أُعِدَّتْ من قبل ليتلوَ فيها القراء رواتب القرآن ، ولأمر مَّا أُهملتْ واتُّخِذَتْ مخزناً للقديم من الأمتعة والأدوات ، ثم أُخْلِيَتْ بعد ذلك لتكون لى حجرةَ مذاكرة ودرس .

وبينما كان الشيخ « الزينى » يلقى علىّ يوماً درساً فى الإملاء ، وهو مسبَل الجفنين ، يَغْشاه خمولُه ، إذ سمعتُ وَقْعَ خطا وئيدة ثقالٍ تصعد سلالم المَنْظَرة ، فعرفتُها على الفور ، وصحتُ مُزْعَجاً : أخى «البك» !

واهتزَّ الشيخُ « الزينى » فى مقعده ، وفتح عينيه ما وسعه أن يفتحهما ، وأخذ يمسح لعابه المتسايلَ على جانبَىْ فمه ، ثم هبّ واقفاً ، واندفع مهرولاً نحو الباب . ورأيتُ أخى قادماً ، والشيخ ينحنى على يمينه يصافحه ، ثم تقدم وجلس على المُتَّكَإ ، وأشار إلى معلمى أن يجلسَ على الكرسىّ ، غيرَ بعيد منه ، فامتثل الشيخ ، وجلس جِلْسَةَ وقار .

وسعل أخى سَعلته المألوفة ، ثم قال :

لى معك حديثٌ فى شأن الولد « سامى » . . .

فَرَجَف قلبى ، وسارقتُ النظرَ إلى الشيخ « الزينى » فلمحتُ شفتيه تهتزان بلا كلام ، واستأنف أخى قوله :

لقد آن أن نُلْحِقَ « سامى » بالمدرسة . . . فقد أوفتْ سِنُّه على

التاسعة ، وموعدُ افتتاح الدراسة بعدَ شهر ، فهل لك أن تُعِدَّه لذلك ؟

فأجاب الشيخ وهو يَدْعَك يديه :

يمكنك يا سيدى أن تعوِّلَ علىّ ، وسترى ما يسرُّك إن شاء الله .

— هـذا هو المأمول فيك ، ولن ننسَى أن نجزيَكَ على الجميل بالجميل . . .

— خيرُك فَيَّاض يا سـيدى « البك » ، لا حَرَمنَا اللهُ عطفَك الـكريم . . .

وما عَتَّمَ أخى أن نهض مشيِّعاً بالإجلال ، وصَرَفَنى المعلم قبـل انتهاء فترة الدرس ، بحجة أنه ماضٍ يبحث عن كتب الإعداد للمدرسة ، فانطلقتُ والأفـكار تلتطم فى رأسى ، وقصـدتُ حجرة « بشير أغا » فرأيتـه جالساً على حَشِيَّةٍ يهيىء قهوته ، وكانت الشيخوخة قد أقعدته عن العمل منـذ زمن ، فلزم حجرتَه لا يبرَحُها إلا إذا كُلِّفَ عملا ذا شـأن . فجلستُ بجواره صامتاً أرقبُه ، وانبعثتْ من القهوة رائحة زكية حين جعل يَصُبُّها فى القدح ، فقلت له :

ألا تُذِيقُنى جُرْعَةً من قهوتك هذه ؟

فرمانى بنظرة شزراء وقال : عَيْب أن تطلب منى ذلك يا ولد . . .

فقلت مستدركا : لن أطلب منك ذلك . . . لا تغضب !

ومرت هُنَيْهَة صمت ، ثم سألتُ « الأغا » :

ألم تدخل مدرسةً فى حياتك يا عم « بشير » ؟ . . .

فاحمرتْ حَدَقَتاه ، وزمجر قائلا :

مَنْ أخبرك أنى تعلمتُ فى المدارس يا قليلَ الحياء ؟

— لماذا تشتُمنى ؟ أفى سؤالى ما يَسُوءك ؟

وأقبلتُ عليه ألاطفه ، معتذراً إليه ، وقلت :

سأَلْحَقُ أنا بالمدرسة بعد شهر .

فانفجر « الأغا » ضاحكاً ، وقال :

لقد آن الأوان إذن لتدخلَ السجن !

فرنوتُ إليه ، وقد اعترتنى بَهْتَة ، وقلت : وهل المدرسة سجن ؟

— أَوَ كُنْتَ تحسبُها جنة ترتع فيها وتمرح ؟

فنكستُ رأسى لحظة ، ثم رفعتُ إليه بصرى ، وأنا أقول :

وهل المنزل جَنَّة ؟ ستكون المدرسة خيراً لى على أية حال .

— عجباً لك . . .

— حسبى أنى سأخلُص من سوء معاملة أخى لى .

— إنه يربِّيك .

— بل يكرهنى . . . وإنى كذلك أكرهه !

وشعرتُ بغتة أن ما تفوَّهْتُ به إثم كبير، فاجتذبتُ يدَ « الأغا »، وطَفِقت أقبِّلها، وأُلِحُّ عليه فى الرجاء ألا يُظْهِرَ أخى على شىء مما دار بينى و بينه، فطيَّب خاطرى، وأنالنى حُسْوَةً من قدح القهوة، وهو يتضاحك قائلا: اشرب قليلا لتهدأ نفسُك!

فتناولت الحُسْوَة، وحثثتُ إلى الحديقة خُطاى.

٢

وفى ذات يوم، سمعتُ من زوج أخى أن « إجلال هانم » وحفيدتها « تهانى » عادتا من « استانبول » وأنهما ستزوراننا عما قليل. وكان يطيب « لإجلال هانم » إذا ما حلّتْ ضيفةً علينا أن تُمْضِىَ بيننا أسبوعاً أو أكثر، فتلقيتُ هذا النبأ بِهِزَّةِ اغتباط وسرور.

و بينما أنا فى حجرتى يوماً ألعب، إذ تناهتْ إلىّ ضوضاء مركبة تجوزُ فِنَاءَ البيت، فهرولتُ إلى النافذة، فرأيتُ رَكْبَ « إجلال هانم » يتهادى نحو باب الحَرَم، وأمام الخيل سائسان يَرْفُلان فى الملابس المُقْصَبَة. أما السائق فكان فى حُلَّته الرسمية، وبجانبه « فيروز أغا » مرتدياً لَبُوسَه الأسودَ الذى لم يستبدل به زِيًّا طولَ حياته. وما هى

إلا أن نزلتْ « إجلال هانم » من المركبة ، ملثَّمة الوجه بالغلالة الشفَّافة البيضاء ، لا يبدو منها غيرُ عينيها البراقتين الصغيرتين تقلبهما فى رزانة وتوقّر . وتبعتْها حفيدتُها « تهانى » فى ثوبها الناصع البياض تَخْطِرُ فى تأنق وخُيَلاء ، وتنقل قدميها على محاذرة واحتراس ، كأنها تخشى ملامَسة الغبار ومعابثةَ النسيم . فهبطتُ الدَّرَجَ مسرعاً إلى البهو الكبير أستقبلهما ، فما إن بلغتْ مسامعى خطوات القادمين حتى ألفيتُنى أتوارى خلف إحدى الستائر ، ودخلتْ « إجلال هانم » البهو ، وئيدةً فى مِشيتها النبيلة ، وبجانبها زوج أخى آخذةً بيد « تهانى » ، تحيط بالجمع شِرْذِمَة من الخادمات ، يتقدمهنّ « فيروز أغا » حاملاً لَفيفة ضخمة .

وسرعان ما تلفتت زوج أخى ، ثم قالت :

أين « سامى » ؟ لتذهبْ إحداكن لاستدعائه على الفور .

فلم أجد مَناصاً من الخروج ، وأثار ظهورى من مخبئى ضَجَّةَ ضحك ودعابة ، فتقدمتُ من « إجلال هانم » وانحنيتُ أقبل يدها ، تلك اليد البَضَّة المورَّدَة التى تشبه فى نعومتها مَلْمِسَ الحرير ، ثم انثنيت إلى « تهانى » فصافحتها دون أن أنبسَ .

ودخلنا جميعاً قاعة الزوار ، وبعد هنيهة قَدِمَ أخى ، فوقف خلفَ الباب يحيى الضيفة ، فدنتْ هى من الباب تبادلُه التحية ، وجرى بينهما من مقتضَبِ الحديث ما يقتضيه المقام .

وعادت « إجلال هانم » إلى مجلسها ، فعَمَدَتْ إلى اللفيفة التى كان يحملها « فيروز أغا » وجعلت تعالجُ حلَّ رِباطها ، فمالت « تهانى » على أذنى تهمس : تلك هدايا لكم .

وطفقتُ أُراقب « إجلال هانم » فى شغف ، وهى تَحُلّ الرباط ، فلما تفتحت اللفيفة أسرعتْ إليها « تهانى » تَنْبُشُ وتفتش ، لا تبالى ما ترميها به جَدَّتها من زجر وانتهار . ثم أفلحتْ فى استخراج هديتى ، وجاءتنى بها على عَجَل ، وهى تقول :

انظر . . . حافظة كتب ، مُوَشَّاة بالقَصَب . . .

ونادتنى « إجلال هانم » فلبيتُها طائعًا ، فناولتنى عُلْبَةً من الحلوى ، فقبّلتُ يدها شاكراً ، وانصرفتُ من ساعتى مع « تهانى » إلى الحديقة ، وقد أخذتُ يدها فى يدى ، وانطلقنا نتواثب مَرِحَيْن ، وسألتنى « تهانى » : هل أعجبتك الحافظة ؟

— أعجبتنى جدًّا

— ستضع فيها كراسات الشيخ « الزينى » .

— بل كراسات المدرسة .

— المدرسة ؟

— سألْحق بها بعد شهر .

— أمسرور بذلك أنت ؟

— لستُ بمسرور ولا بمحزون .

وكنا قد اقتربنا من الظُّلَّة بجوار النافورة ، فتلفتتْ « تهانى » ، ومضت تَهُشُّ بيدها على الطير السابح فى الماء ، وتصفّق طرباً قائلة :

يلوح لى أن الحديقةَ كما تركناها من قبل ، زَهْرَاء غَنَّاء . . . .

ماقىءُ البستانىّ يرعى الإوَزّ والبط .

ودَلَفنا إلى الظُّلَّة ، وهممنا بأن نجلس على المقاعد الممدودة ، وإذا « تهانى » تُحْجِم عن الجلوس ، وتنظر إلىّ قائلة :

أليس لديك منديل نظيف ؟

— لدىّ .

وأخرجتُ من جيبى منديلا بسطتُه على مقعدها ، فجلستْ وأخذتُ مكانى بجانبها ، وفتحتُ علبة الحلوى ، وبدأنا نأكل مما تحتويه .

وبعد هنيهةٍ صَمَتْ ، قالت « تهانى » :

لا أرى « العَيُّوطى » يلازم البط والإوز كعهدى به .

فشعرتُ بارتباك ، وما أسرع أن تماسكتُ ، وقلتُ فى غيرمبالاة :

لقد طردناه .

— لماذا ؟

— لم يكن يحسن القيام بشىء

وجعلتُ أسألها عن رحلتها إلى « استانبول » وانسرحنا فى أحاديث عِذَاب ، كانت فيها تقصّ علىّ ما لقيَتْ من حفاوة فى بيوت أسرياء الترك ، وما سمعتْ من إشادة بها وإطراء . ثم أخذت تصف لى ما شهدتْ هنالك من مناظر جميلة ومباهج فاتنة ، لا نظيرَ لها فى « مصر » من أقصاها إلى أقصاها .

وسألتُها فى أثناء الحديث :

ما هو أروع شىء وقعت عليه عيناك . .

فقالت ، وهى متحمسة مهتاجة النفس : الصدر الأعظم !

فأسرعتُ أقول فى تطلع وتشوُّف : أرأيتِه ؟

فابتسمتْ فى استخفاف وقالت : ما إن دخلتُ عليه ، حتى حملنى بين يديه ، وقَبَّلَنِى فى بشاشة وترحيب ، ولكنى دفعتُه عنى وقلت له : إن شاربَك يَشُوكُنِى ، هلا شَذَّبْتَ أطرافَه ؟

— أحقًّا جَرُؤتِ على أن تقولى ذلك له ؟

— لقد أغرق فى الضحك ، ورَبَّتَ خدى ، وقال لى : فى زيارتك التالية لن يَشُوكَكِ شاربى ياصغيرتى الحسناء !

انطلقتُ أسرّح الفكر لحظاتٍ فيما أسمعتْنِي إياه « تهانى » من هذا النبإ الخطير، وسألتها : ما شكلُ الصدرِ الأعظم ؟

فقالت وهى تستعين بإشارتها على التعبير :

ياله من رجل . . . قامة فارعة ، وجسم ضخم ، ووجه مُطَهَّم ، وعينان ينبعث منهما وَمِيضُ العزة والكبرياء .

ولما قَفَلْنَا إلى المنزل ، ذهبت « تهانى » إلى جدتها فى حجرتها التى أعددناها لها فى الطبقة الأولى ، أما أنا فصعدتُ إلى حجرتى لأضع حافظة الكتب وعلبة الحلوى ، وفيما كنتُ مارًّا بحجرة زوج أخى طرق أذنى لَغَط ، فدنوتُ من الباب أسترِقُ السمع ، فإذا أخى يقول :

لا أحبُّ هذه الهدايا التى تؤدى ثمنَهَا أضعافاً مضاعَفة !

وكان فيما يقول عنيفَ اللهجة ، ففررتُ إلى حجرتى ، وأنا أشعر بألم دفين ، ووثبتْ إلى ذاكرتى أشتاتٌ من الأحاديث كانت تترامَى إلىَّ فى شأن ما تكابده « إجلال هانم » من متاعبَ ماليَّةٍ ثقال .

٣

لبثتُ أُمْضِى أوقاتى مع « تهانى » نرتع ونلعب ، حتى إذا قَدِم الشيخ « الزينى » ليلقننى درسه الراتب إعداداً لدخولى المدرسة ، لم تَدَعْنا « تهـانى » فى خلوتنا نقرأ ونستذكر ، بل كانت تقتحم الحجرة وتفسد علينا المجلس بما تبعثه من تضاحك وضجيج ، فإن قعدتْ مدّت قدميها فى وجه الشيخ ، فلا يفتأ يعنّفها فى تضايق ، فتخرج مُغْضَبة ثائرة ، وتشكوه إلى الخدم ، مدعيةً عليـه أنه ينهال عليها ضرباً وقرصاً ، وتأبى إلا أن تستشهدَ بى ، فلا أجد إلى تـكذيبها والإنكار عليهـا من سبيل !

وكثيراً ما كان يطيب لنا المُـكْثُ فى الحديقة نتصيَّد العصافير بالنَّبْل ، ونحتال لتسلُّق الأشجار والأسوار .

ومرةً لمحتْ « تهانى » عُنْقُودًا يانعاً من العنب متدلياً من عَرِيش الـكَرْم ، فأشارت إليـه ، وقالت : ما أجمل هذا العنقود !

فقلتُ لها وقد فطنتُ إلى رغبتها : سأنادى البستانىَّ يقطِفه لك .

فنظرتْ إلىَّ نظرةَ استنـكار ، وقالت : مَن أخبرك أنى أريده ؟

فدَهِشْتُ من لهجتها ، وما عَتَمْتُ أن تجهَّمَ وجهها . . . وغَشِيَنا الصمت بعض الوقت ، ثم قالت « تهانى » كأنها تحدث نفسها :

طالما قطف لى « إحسان » بن « فوزى باشا » بيده عناقيد أبعدَ من هذا العنقود منالا !

فاعترتنى حيرة وضيق ، ورأيتُ « تهانى » تهزّ رجليها فى خُيَلاء وازدراء ، فغمغمتُ قائلا : ولكن أخى . . . أخشى أن يباغتَنى . . . شَدَّ مَا نهانى عن العبث بفاكهة الحديقة !

— إن « إحساناً » لا يخشَى أخاه ولا أباه إذا رغبتُ إليه فى شىء !

ونظرتُ مُحْنَقاً إلى عُنْقود العنب ، ثم عقدتُ يدىَّ خلف ظهرى ، ومشيت فى خطوات عابثة أتكلف الهدوء والسكينة ، ثم استندتُ إلى إحدى قوائم الظُّلّة ، وَطفِقتُ أتشاغل بعود انتزعتُه من شجرة النبق ، أَقْشِرُه وأَكْسِره . وكان الوقت يَمُرّ بى فى بطء شديد ، والتفتّ التفاتة خفية إلى « تهانى » ، فألفيتها ما برحت تهز قدميها وتحدّق فى الأفق شامخة الأنف . ثم لاحظتُ أنها تسارق النظر إلىّ ، وتلاقت عينانا ، دون عمد ، فانفجرنا على الأثر ضاحكَيْن مقهقهَيْن ، وسرعان ما وجدتُنى أقصد إليها ، وآخُذُ مجلسى بجوارها ، فإذا بها تدغدغنى على حين غفلة ، فقفزتُ ضاحكاً ، وعَدَتْ هاربة ، فعدوتُ خلفها بما وَسِعَنِى من جهد ، ولَذَّ لنا الطواف بالحديقة ، نتضاحك ونتصايح ، ثم رجعنا إلى مكاننا من الظلة ، وتهالكنا على المقعد ، وأنفاسنا تتلاحق . . .

وقالت « تهانى » : لم تستطع اللحاق بى .

فلم أنكر عليها ما تَدَّعِى ، وما كان يُعْيِينى اللحاقُ بها لو أردتُه .

وعلى حين بغتة قمتُ إلى عريش الكرم ، وهممتُ أن أتسلقه ، وأدركتْ « تهانى » ما أنا فاعل ، فصاحتْ بى تمنعنى ، فأصررتُ على إنفاذ ما هممتُ به . ووافتنى شجاعة حافزة ، فمضيت أَقْطِف العنقود ، ثم هبطتُ به إلى الأرض ، فَشَمِلَتْنِى غبطة لا عَهْدَ لى بها من قبل ، وجلستُ و « تهانى » بجوار النافورة نأكل من العنقود ، ونرمى للإوَز والبط بما لا نستطيب من حَبَّات العنب ، وخُيِّلَ إلىّ أنى لم أَطْعَمْ فى حياتى فاكهة لها لذة هذا العنقود !

وكان أخى قد اشترى لى مركبة صغيرة بِمُهْرٍ ظريف ، لكى تكون لى فى ذهابى إلى المدرسة وأوبتى منها ، واختار لها السائس « مدبولى » سائقاً .

وقد أجاز لى أخى فى هذا اليوم أن أخرج بالمركبة أتنزَّه أنا و « تهانى » . فارتديتُ حلتى القشيبة ، وأمسكتُ بيمناى العصا التى أهداها إلىّ بائع الملابس حين اشتريتُ الحلة ، واكتستْ « تهانى » ثوبها الحريرى الأبيض ، ولبستْ قُفَّازاً وحذاء على لون الثوب ، وَعَصَبَتْ شعرها الفاحمَ برباط حريرى ناصع البياض ، وتعطرت بعطر جدَّتها الفاخر ، وخرجتْ معى إلى الفِنَاء رائعة الزينة متألقة المُحَيَّا ،

تنظر إلى نفسها ، ثم تطوف بعينها فيما حولها كأنها تستدِرّ الإعجاب والإطراء . وألفينا مُهْرَ المركبة يصهَل ويتوثَّب فى حَمِيَّة وفتوة ، ضارباً الأرض بحوافره . واعتلى السائق « مدبولى » مقعدَه فى جلباب أَزْهَرَ ومِعْطَف سابغ ، فالتفتت إلىّ « تهانى » ، وقالت مهتاجة :

أهذا الرجل الذى يرتدى الجلباب هو سائق المركبة ؟

— إنه « مدبولى » السائق الخاص لمركبتى .

فدقَّتْ بقدمها صائحة :

لا أكون فى مركبة يسوقُهـا رجل فى جلباب !

ولمحتُ الدمعَ يتحيَّر فى عينيها ، فجعلتُ أترضَّاها جهدى ، فلم تَلِنْ وهمتُ بالعودة إلى الدار ، فأمسكتُ بهـا ، وأدرك « مدبولى » عِلَّةَ ما بيننا من نزاع ، فنزل عن المركبة مسرعاً ، وقصد إلى حظيرة المركبات وما هى إلا أن خرج منها عليه حُلَّةُ رئيسه « الأسطى عثمان » . واتجه إلى « تهانى » يقول لها : أيعجبك هذا الزِّىُّ ياهانم ؟

ومضتْ بنا المركبـة إلى الحارة ، وجازَتْها إلى الشارع ، ومالت « تهانى » على أذنى هامسة : يجب أن تضع ساقاً على ساق ، وأن تجلس جلسة الأمراء . . . ألا ترى الناس يرمقوننا بعيونهم ؟

فابتسمتُ لها ، ثم تعاظمتُ فى مجلسى ، ونفختُ شدقىّ !

٤

وأسفر صبح اليوم الموعود ، يوم ألا نتظام فى سلك الدراسة ، فاستيقظتُ من النوم بُكْرَةً ، يستبدّ بى الضيق . وجعلتُ أرتدى حلتى تأهبًا للخروج ، وكان « مدبولى » قد أعدّ المركبة الصغيرة لِتُقِلَّنِى إلى المدرسة ، فركبتُ صامتًا لا أنبِس ، وسارتْ بى المركبة تخترق الشوارع والدروب ، وأنا مستغرق فى وجوم وتفكير ، تتراءى لى أشباح مبهَمة من مشاهد المدرسة والمعلمين والتلاميذ .

وألفيتُ المركبة تُمْسِكُ عن المسير ، فرفعتُ بصرى فإذا أنا تُجَاهَ مبنى عتيق أقربَ ما يكون شَبَهًا بالدار التى نقيم فيها . ورأيت « مدبولى » يشير إلىّ أن أنزل ، وهو يقول : توكَّلْ على الله .

فأجبتُه شاردَ النظرات : أهذه هى المدرسة ؟

ونزلتُ عن المركبة ، آخذًا طريق إلى الباب ، فواجَهَنى البوّاب ، وهو يلوِّح بكميه الواسعين ، مُهيبًا بالتلاميذ أن يسارعوا إلى الدخول فى صوت جهير ، تتجلى فيه الإمْرة والسيطرة .

ودخلتُ مع الداخلين إلى الفِنَاء ، فألفيتُ حديقة فسيحة سامقة الأشجار ، والتلاميذُ خلالها فى تصايح وتلاعب وتَجْوَال . فوقفتُ

وحدى مستنداً إلى جذع شجرة ، أراقب مَنْ هُمْ حولى من الرفاق . وطالت وقفتى وأنا على هذه الحال ، فأحسستُ فى دخيلة نفسى هاتفاً يدفع بى إلى الهَرَب !

وفيما أنا جامد فى وقفتى ، عَرَتنى هِزَّة مفاجئة زلزلت كيانى ، فقد تتابعت دقات الناقوس ، تدوّى فى الفضاء بصوت مرهوب . وما كاد الناقوس يمسك عن صليله ، حتى تعالى بعده صوت جَهْوَرىّ أَجَشّ ، يأمر التلاميذ أن ينتظموا فى الصفوف ، فَهُرِعْتُ آخذاً مكانى فى صف التلاميذ الجُدُد . وكان صاحبُ الصوت الجهورى ما برح يردِّد أوامره متلاحقة لا تكتفى ولا تشتفى ، على حين يتراقص شاربُه غزيراً مسنونَ الأطراف .

ووجدتنى أساير صفًّا من التلاميذ ، نضرب الأرضَ بأقدامنا فى خطوات راتبة ، كأننا ثُلَّة من الجنود يؤدون تمرينهم العسكرىّ .

وفى هذه اللحظة وحدها أيقنتُ بأنى أبتدئ منذ اليوم عهداً جديداً من حياتى ، لا أعرف له كُنْهاً ، ولكنه على أية حال يختلف أيما اختلاف عما سلف لى فى الحياة من عهود .

واحتوانى الفصل مع الرفاق ، فأخذوا مجالسهم على المكاتب مَثْنَى مَثْنَى ، وجلستُ مع واحدٍ من هؤلاء الرفاق على مكتب يلتمع طلاؤه الجديد .

وما أسرع أن تَمَّ بينى و بين جليسى تعارف وثيق ، فانبرى فى جرأة ومصارحة يُفْضِى إلىّ من خاصة شأنه ومن أحوال أسرته بما لم أكن أتوقع أن يُذِيعَه لى ، على حداثةِ عهده بى .

ونبتتْ بينى و بين هذا الرفيق أُلفة محببة ، فلاطفتُه ببعض ما حشوتُ به جيبى من حَلْوَى أفانين .

وآذنتْ الحصةُ الأولى بالانتهاء ، وتبعَتْها الحِصَصُ الأخرى ، وكانت على تعدُّدها متشابهة ، إلا فيما كان من اختلاف المعلمين .

وانقشعتْ عن نفسى تلك الرهبة التى كنتُ أعانيها ساعةَ قدمتُ على المدرسة ، ولما خرجنا فى فترة الغَدَاء إلى الحديقة ، لزمتُ رفيقى « خيرى » ألاعبه بكرته الصغيرة . وكنّا على مائدة الغَدَاء جنباً إلى جنب ، واسترعى انتباهى ضابطُ دائب الحركة ، ضاحكُ الأسارير ، ينادونه باسم « محيي الدين افندى » ، جعل يعلمنا أدبَ المائدة فى اغتراف الطعام ، وتوزيعه ، وتناوله . فَأَنِسْنَا به ، وامتثلنا لتوجيهه ، فى رضا و إقبال .

وكاد اليوم أن ينتهىَ بسلام ، لولا ذلك الحادثُ الذى تمخضتْ عنه الحصة الأخيرة . . . إنها حصة الإملاء ، المعلم فيها رجل عَبُوس القسمات ، متنمِّر النظرات ، لايفتأ يَهْدِر و يزمزم ، ولا يملُّ إصدار أمره إلينا أن نسكُتَ و إن كنا جميعاً فى سكوت !

ولاحتْ منى لفتة إلى رفيقى « خيرى » فلمحتُه يغضّن من جبينه ، ويُعوِّج شدقيه ، ويمطُّ شفتيه ، كأنه يحاكى سَخْنَة المعلم ، سخريةً به ، وزرايةً عليه . وكان المعلم وقتئذٍ مصروفاً إلى التصحيح فى إحدى الكراسات ، مكبًّا عليها ، لا يكاد يَحيدُ عنها ببصره ، فانسلتْ من فمى ضحكة على حين غفلة ، فرفع المعلم رأسه عن الكراسة ، محتقنَ الوجه ، بادىَ الغضب ، وقال فى صوت ينذر بالشر : من الضاحك ؟

فازداد الفصل سكوناً إلى سكونه ، ورفرف قلبى بين ضلوعى ، حتى خُيِّلَ إلىّ أن خفقاته ستكشف عن أمرى . وأعاد المعلم سؤاله ، ولكنه لم يظفر من أحد بجواب . ولاحظتُ أن شفته ترتجف ، فتفصَّد من جبينى العرق ، ورأيت المعلم يخطو خطوة حاسمة ، وهو يقول :

إذا لم يخبرنى أحدُكم باسم التلميذ الذى ضحك ، توليتُ ضربكم جميعاً ، لا أُفْلتُ منكم أحدا .

فسمعتُ صائحاً من خلفى يقول : إنى أعرفه يا افندى .

— من هو ؟

— هذا .

وأحسستُ كأن إصبعَ التلميذ تخترق رأسى ، وهو يشير بها إلىّ .

وتوخّانى المعلم قائلا : أأنتَ الضاحك ؟

فاضطرب لسانى بقولٍ غير مبين ، فإذا بيـد المعلم تَهْبِط على أذنى فتفرُكُها وتَعْرُكُها ، وظل كذلك حتى قام فى ذهنى أن الرجلَ يحاول اقتلاعَها من مَنْبِتِها ، وأنا أتلوَّى كاتمًا ما يَجِيشُ فى النفس من ألم .

وتركنى المعلم ، راجعاً إلى مكانه ، وأنا أشعر بأن أذنى قد انقلبت جَمْرَةً من النار تتضرَّم ، وأنها قد انخلعت من مستقرِّها وأوشكت أن تسقُط ، وجلستُ ناكسَ الرأس ، وما لبثتُ أن استبدَّ بى بكاء كَظِيم ، فجعلت أفتش عن منديلى ، فلم أجدْ له من أثر . فمال علىّ رفيقى « خيرى » يدسُّ منديله إلىّ .

وانقضت الحصة ، وتهيأنا لمبـارحة الفصل ، فوجدت « خيرى » يشير إلى أحد الرفاق ، وهو يقول لى :

انظر إلى هذه البَطَّةِ التى تتأبَّطُ كتباً !

فالتفتُّ حيث أشار ، فإذا هو يقصِد « الزغبى » ذلك التلميذ الذى وَشَى بى عند المعلم ، فنالنى من جَرَّاء وشايته ما نالنى من عقاب .

وسَـدَّدتُ إلى « الزغبى » نظرة شزراء ، وأنا شامخ الأنف ، ثم ملت على رفيقى ، فانطلقنا معاً ضاحكَيْنِ فى سخرية واستهزاء .

وما هى إلا أن راعنى « الزغبى » هاجماً علينا بِجِرْمِه العريض ، وذراعيه القويتين ، وجعل يَلْـكُمنا فى جسارة وعنف . فأما أنا فقـد

مَنَعَتْنِي الدهشة أن أردَّ العـدوان بمثله ، وأما رفيقى فقد انبرى يُقْسِم لَيشكُوَنَّ « الزغبى » إلى الضابط ، وَلَيُرِيَنَّه كيف تكون العُقْبَى . بيـد أننا حين مررنا بالضابط فى مُنْصَرَفِنَا من المدرسة ، فطنتُ إلى أن « خيرى » يَحُثّ خطاه ، ليتجنبَ مرأى الضابط ، كأنه لا يشهَدُ له ظلا .

وكذلك أدبرتُ عن المدرسة ساعةَ العصر ، كما أقبلتُ عليها فى رَوْنَق الصبح ، وأنا فى كلا الوقتين منقبضُ الصدر ، مهمومُ الفؤاد .

وكان « مدبولى » على مقربة من البـاب ، واقفاً بالمركبة ، يفرقع بسوطه ، إعلاماً لى بمكانه . فقصدتُ إليـه ، وصعدتُ فى المركبة ، يغشانى صمت . فابتدرنى بقوله : كيف حالك ؟ ألستَ مسروراً ؟

— مسرور . . .

وإذا بى أسمو بيدى إلى أذنى أتحسَّسها ، على غيرِ عَمْد . وجعلتْ المركبة تسلك الطريق ، وأنا فى غمرة من صمتى ، شارد الخطرات .

وبغتة شعرتُ بحركة على سُلَّم المركبة ، ولمحتُ يدا تتشبث بمدخلها ، وما هى إلا لحظة حتى تبينتُ « العَيُّوطى » صبىّ البستانى الطريد يقفز إلى داخل المركبة ، ويأخذُ مجلسَه بجانبى فى صفاقة واجتراء . فثارت بنفسى غضاضة واشمئزاز ، ولـكن سرعان ما سمعتهُ يقول :

متى أرسلوك إلى المدرسة ؟

واستبان لى أن صوتَه قد اخشوشن أكثر مما كان ، وأجبتُه :

هذا أولُ يوم لى فى المدرسة .

فلوَى رأسه إلى الطريق ، وقذف من فمه بصقة غليظة ، ثم مسح شفتيه بظهر يده ، وهو يرسل ضحكة شَوْهاء ، وقال :

أما أنا فأشتغل عند عَلَّاف . . . خدمة طيبة . . . خير من بيتكم !

فشدّ « مدبولى » عنانَ المُهْر ، يقف المركبة ، واستدار يرمى « العيوطى » بنظرة حامية ، وهو يأمره أن ينزل من فوره ، ولمح « العيوطى » سوط « مدبولى » يهتزّ فى يده ، فتكلف ضحكة ساخرة ، وقفز مغمغما تطويه زَحْمَة الطريق .

وتابعت المركبةُ سيرها ، وأنا أفكر فيما صنع « مدبولى » مُعْجَباً بموقفه العظيم .

و بلغتُ المنزل ، وما إن وطئتُ عتبةَ الردهة ، حتى استقبلتْنِى زوج أخى فى تشوُّف وحنان ، وكانتْ جالسة هى والحاضنة « مسرات » تنتظران أوَبَتِى ، فارتميتُ على صدر زوج أخى وأخفيتُ فيه وجهى ، وأنا أجدُ نفسى أتعلق بها ، كأنى ألتمس عندها الخلاصَ مما أعانيه ، فرأيتها تستجيب لى ، وتضمنى إليها ضَمَّة إشفاق ، ثم إذا هى ترفع وجهى

إليها ، وتحدّق فيّ ، كأنها تَسْتَكْنِهُ ما بطن من أمرى ، ثم قالت :

ماذا بك يا حبيبى ؟ أجبنى . . .

فطأطأتُ رأسى ، أُخْفِيه فى صدرها ، وأنا أزداد بها من تشبُّث ، فسمعتُها تقول للحاضنة « مسرّات » :

الولد مكروب ... لابد أن يكونَ قد ضربه أحد .

فصرختُ باكيًا أقول :

لم يضربنى أحد . . . لم يَشُدَّ أذنى أحد !

٥

لم يَمْضِ علىّ فى المدرسة أسبوع ، حتى انعقدت الألفة بينى و بين « الزغبى » ، فكان هو و « خيرى » صديقَىَّ المختارَيْن .

وحل « الزغبى » منا مَحَلَّ الزعامة ، يفرِض علينا ما يرتئيه ، فنذعن له بالطَّوْع . إذا خرجنا نلعب ، أَلْزَمَنَا أن نمارس ألعابًا بِعَيْنِها ، وإن لم نكن نَهْوَاها . و إذا صافَى بعضَ الرفاق ، أو عادَى منهم أحدا ، أرادنا على أن نكونَ له تَبَعًا . و إذا لم يَرُقْه صنيعٌ من معلمى المدرسة ، انتصر بنا لتأييدِ ما يَعِنّ له من رأى ، حين يتحدَّث إلىّ جموع التلاميذ .

فأما « خيرى » فكان لا يَمَلّ الإفضاء إلى بأسرار بيته وخفايا أهله . حتى ثَقُلَ على سمعى حديثه ، وعجبتُ له : كيف لا يمسك لسانهُ عن شئونه الخاصة ؟ وكيف لا يمل التّكرار والترديد ؟ وعلى مرّ الأيام توثقتْ بيننا عُرَا الصحبة ، فكنا على الدوام ثالوثا يَسُودُه الوِفاق . الصبحُ يجمعنا عند مركبةِ « محمد أغا » بائعِ الحلوى وأدوات المدرسة ، وهو رجل حادُّ اللهجة ، سريعُ الغضب ، على ما فيه من سذاجة وغفلة . وكان « الزغبى » يتفنن فى مشاكسته وإثارة غضبه ، حتى يلتفَّ الناس حولهما يتفرجون ويتضاحكون ، ولكن سرعان مايتهى الأمر دائما إلى صلح وسلام ، فيتقدم « الزغبى » ليشرئبَّ إلى رأس « محمد أغا » ، فيقبِّلهُ مرات ، على حين يغمغم الرجل بقوله :

سامحتُك يا بنى . . . هداك الله يا بُنَىَّ !

وكان هذا المنظر يقع من نفوسنا موقع الارتياح ، فلا نسأم شهوده على تكراره .

وتعودتُ حياة المدرسة ، على تواصل الأيام ، وأصبحتْ مألوفة لى . وكان مما يجعلها حبيبة إلىّ ذلك الضابطُ المسمَّى « محيى الدين افندى » . فقد أشعرنى بأنه أب شفيق يحنو علىّ حنوَّه على ولده . وكثيراً ما كان يفاكهنى بصُوَرٍ هزلية يَرْسُمُها لى بقلمه ، وذات مَرة قال لى :

إن لك أذناً تشبه أُذُنَ « سرحان » .

فقلتُ له : ومن « سرحان » هذا يا افندى ؟

فأخرج دفتره الصغير الذى كان يلازم جيبه ، وأجْرَى القلم فى ورقة منهُ يَمْنَةً ويَسْرَةً ، ثم قال لى : انظر . . .

فتطلعتُ ، فإذا أنا أرى أمامى رسماً سريعاً لرأس حمار ، وسمعتُه يقول لى : هذا هو « سرحان » . . . حمارى الصغير !

فأغرقتُ فى الضحك ، وأنا أقول : أعندك حمار يا افندى ؟

ــ حمار صغير . . : حجمه شبر فى شبر . . وهو صديق بنتى « فتحية » . . . أتودّ أن تراه ؟

ــ يسرنى أن أراه .

ــ نذهب معاً لرؤيته بعد انتهاء الدروس .

فشملَتْنى فرحة هزتْ أقطار نفسى ، ولكننى ما لبثتُ أن استغرقتُ فى التفكير لحظة ، ثم قلتُ للضابط : وصديقاى « خيرى » « والزغبى » ؟

ــ نذهب جميعا ... هل تَسَعُنا مَرْكَبَتُكَ ؟

ــ كلَّ السَّعة .

وانطلقتُ أتفقّد « خيرى » و « الزغبى » لأزُفَّ إليهما البشرى ، وَخُيِّل إلىّ أن الحصص تطول أكثر مما هو مقدّر لها من وقت ، فكنت أُزَجّيها بكل وسيلة ، وأنا ذاهبُ الصبر .

وأخيراً غادرْنا المدرسة ، فأقلّتنا المركبة جميعاً إلى بيت الضابط « محيي الدين افندى » . وفى أثناء الطريق ، كان هو يجاذب « مدبولى » أطراف الحديث ، مُفْسِحا لنا مجال المعابثة والمِزاح .

وسمعْنا « محيي الدين افندى » يقول للسائق :

مكانَك . . . هذا هو البيت .

وَسَبقَنا بالنزول من المركبة ليرشدنا إلى الطريق ، واجتزنا بوابة عتيقة ، فاحتوانا فِناء صغير تنظر إليه نوافذُ الحجُرات ، واسترعت عينى شجرة عجفاء ، شُدَّ إلى ساقها جحش يضرب لونه إلى الحمرة ، فتدانينا منه نتطلع فى شغف ، ولكن الجحش لم يَأْبَه لنا ، فقد كان مصروفا إلى برسيمه يعتلف ، فصفق « محيي الدين افندى » منـاديا : « فتحيـة » .

وما هى إلا أن رأيناهـا تـنزل إلينا ، فلمـا أبصرها الجحش ، رفع إليها رأسه ، وجعلَ يَقْلِبُ لها شفتيه ، كاشفا عن أسنانه العاجيَّة المرصَّصَة ، فشَمِلَتْنا فورة من الضحك .

وتقدم « محيي الدين افندى » يقول لابنته : هؤلاء ضيوف ظرفاء ، فالعبوا معا . . . واحرِصِى على أن تكونى ذاتَ لطف وذوق .

وأدْبَرَعنَّا يصعد الدَّرَج ، وبقِينا على مقربة من الجحش نتوسّمه ، وشهِدْنا « فتحية » تمدّ يدها بقطعة من السكر إلى « سرحان » فما أسرع أن التهمها ، والبِشْر يلتمع فى نظراته .

كانت « فتحية » صبية سمراء ، أنيسة المُحيَّا ، يَرِفُّ على ثغرها ابتسام . وكانت نظيفة الثوب ، عليها مِيدَعَة أنيقة حسنة الطراز ، تترامى بين كتفيها ضفيرة يَزِينُها شريط وردىّ .

وأطبق بيننا صمت ، فرُحْتُ أرجع البصر بين رفيقىّ ، فإذا نحن الثلاثة على حال سواء من السهوم والجمود .

واشتدّ تعجبى من « الزغبى » كيف خذَلَتْه جرأته المعهودة ، وكيف خانته ذلاقة اللسان ؟

وشعرتُ بأن موقفنا فى غاية من الحرج ، وأننا فى حال لا نُغْبَطُ عليه . ولمحتُ « فتحية » تخالسنا النظرات بين حين وحين . وبغتة دنت من الجحش تقرُصُه ، فإذا نحن نسترسل فى تضاحك . وتحمستْ الفتاة ، وأغراها ما رأته من تضاحكنا ، فجعلتْ توالى قرص الجحش فى نَشْطَة ومراح .

وألفيتُنى أقترب من الفتاة قائلاً : لماذا تقْرُصينه ؟

فأجابتنى : لأنى أُحبه .

وشعرتُ بأن يدى تنبسط إلى رقبة الجحش ، أحذو حَذْوَ الفتاة فى القرص ، فتبِعَتْنِى يد « الزغبى » ويد « خيرى » تصنعان كما أصنع ، فرفع الجحش رأسه إلينا ، وفى عينيه دهشة وعجب ، وجعل يضرِب الأرض بحافره ، يعلن تأفُّفَه ، فلم نكترثْ له ، وتمادَيْنا فى قرصه ، والطرب يهزّنا جميعاً .

وأخيراً عِيلَ صبر الجحش ، فأطلق من حَلْقِه بغتة نهيقاً عالياً ، تَفَزَّعْنا منه كل التفزُّع ، وتفرقنا عنه فى صَخَب وضجيج .

والتفتت إلينا « فتحية » تقول : أتحبون أن تعتلوا ظهره ؟

فصحنا معاً : نعم ، نعم !

فقالت : سأريكم كيف تركبونه .

ثم فَكَّتْ وَثاقَ الجحش ، وما أسرع أن استوت عليه فى مهارة وخفة ، ودارت به فى الفِناء دورة ، وعيوننا بها موصولة ، ثم نزلتْ عن الجحش ، وأشارت إلىَّ أن أتقدم . ولاحظتُ أن « الزغبى » يريد السبق إلى الركوب ، وكنتُ على وَشْكِ أن أدع ذلك له ، ولكن باعثاً لا أعرف مَأْتاه ، دفع بى نحو الجحش ، فامتطيتُه فى جسارة أدهشَنِى أنها تواتينى ، وبدا على « الزغبى » ضِيق لم يستطع أن يكتمَه ، فأما أنا فقد شاع فى نفسى حبور وغبطة ، ودرتُ بالجحش دورتين فى

فِناء البيت ، والفتاة ناظرةٌ إلىّ ، تَتهلَّلُ وتصفِّق . وما كدت أتخلَّى عن ظهر الجحش ، حتى وجدتُ « خيرى » يَخْلُفُنِى عليه ، فيدور دورته ، فلما نزل شَخَصْنا إلى « الزغبى » فإذا هو واقف لا يتحرّك ، فأهابتْ به « فتحية » أن يأخذ نَوْبَتَه ، فأبَى ، وقصد إلى الشجرة يرتكن إليها ، وهو يهزّ قدميه .

وفى تلك الأثناء بدا « محيي الدين افندى » يحمل صَحْفَة ملئت بالنَّقْل من بندق وجَوْز ولَوْز ، ولاحظ الرجل أولَ وهلة أن « الزغبى » معتزل عابس الوجه ، فجذبه من يده يقرّبه إلينا فى ملاطفة . ثم أخذ يوزع علينا النَّقْل ، ويدعونا إلى التنافس فى أكله ، متفنناً فى الدُّعَابَة والمفاكهة .

وظهر السائق « مدبولى » ينبِّهنى إلى أننى أطلتُ التغيُّب ، وأنه يخشَى من ذلك قَلَقَ الأُسْرَة علىّ . فتركْنا البيت ، وأنا فى نشوة من تلك الجلسة الطيبة الأنيسة التى نعمتُ بها الساعة .

٦

تكررت زوراتُنا لبيت الضابط ، حتى استوثقتْ صداقتُنا «لفتحية». وأَلِف الجحشُ مَرْآنا ، فكنتُ أُغدق عليه قِطَع السكر ، وكلما قَدِمْتُ عليه رفع إليّ رأسه ، وراح يقلب شفتيه ، ويكشف عن أسنانه المرصَّصة ، فَأُلقِمُه قطع السكر فى مسرّة وارتياح .

وكان « الزغبى » لا يفتأ يحاول أن يأخذَ بيننا مكان الرياسة فى بيت الضابط ، ولكن التوفيقَ لم يُسْعِفْه يوماً ، فكان يخيب فى سعيه مرةً بعد مرة ، حتى لقد جعلتْ شخصيتُه تتضاءل وتتقاصر ، فأصبحت هذه الزوراتُ لا تطيب له ، ولا تقع منه موقع الرضا .

وفى أصيل يومٍ كانت المركبةُ تمضى بى عائداً من المدرسة إلى منزلى ، فباغتتنى رغبةٌ فى زيارة « فتحية » ، ووجدتُنى أميل على السائق « مدبولى » قائلاً له :

مِل بنا إلى بيت الضابط لأرى الجحشَ « سرحان » .

فنظر إلىّ فى ابتسام ، وفرقع بسوطه ، وقال :

أمرك يا « سامى بك » !

وبينما نحن فى الطريق ، نتوخَّى بيت الضابط ، لاح فى مُخَيِّلَتى

طيف صديقيَّ « الزغبى » و « خيرى » . . . فساءلتُ نفسى : أكان علىّ أن أؤخِّر زورتى اليوم ، حتى أخبرَهما فأصحَبَهما غدا ؟

وهَمَمْتُ أن أرغبَ إلى السائق « مدبولى » فى أن يَحيدَ بالمركبة إلى منزلى ، ولـكننى لم أفعل .

وبلغتْ المركبةُ بيتَ « فتحية » فرأيتُها بالباب ، وما كادتْ تلمحنى حتى هُرِعَتْ إلىّ ، وهى فرحانة طروب .

وسمعتها تسأل : أين « خيرى » و « الزغبى » ؟

فعاجَلْتنِى رَبْكة ، وجعلتُ أُخْلِط فى الجواب ، وأُزَوِّر المعاذير ، فاجتذبتْنِى من يدى ، وهمستْ لى :

نلعب وحدنا . . . هـذا أحسن !

فصادف جوابُها هَوًى من نفسى .

وسارتْ بى إلى فِناء البيت تُحَيِّى « سرحان » . . . وأظَلَّنا صَمْت ، على غير ما أَلِفْناه معا ، إذ كانتْ هـذه أولَ مرة نتراءى فيها وحدَنا لا يَشْرَكُنا فى المجلس أحد .

وبعد فترة قلتُ لها : لماذا لا تزورين منزلى كما أزورُ منزلَك ؟ . . . عندنا حديقة رحيبة تتسع للجرى والتَّوَاثُب ، وفيها مخابىء نستطيع أن نلعبَ فيها لُعْبَة الاستخفاء .

— إنى ماهرة فى هذه اللُّعْبة . . . وستعرف صدقَ قولى .

— وعندنا نافورة يسبَح فيها البط والإوَزّ . . . وفى أقصى الحديقة جُبّ .

— جُبّ ؟!

— جُبّ مُخِيف ، كانوا يرمون فيه اللصوص والمجرمين .

— أحقًّا ؟ . . . وَدِدْتُ أن أرى ماذا فيه .

— أنا لم أدخلْه فى حياتى . . . إن العفاريت تتصايَحُ فيه طُولَ الليل .

— ليتنى أسمعُ أصواتَ هذه العفاريت !

— ألا تَفْزَعِين ؟

وفى هذه اللحظة تعالى صوتٌ ينادى « فتحية » ، فقالت لى : جَدَّتى تَدْعُونى .

وصَعِدَتْ مهرولة ، وما لبثْتُ أن هَبَطَتْ إلىّ تقول :

جَدَّتى تَبْغى أن تلقاكَ .

فرافقتُها صاعداً إلى الطبقة العُلْيا من المنزل ، و بينما نحن على السُّلَّم حدثتْنِى الفتاة أن جَدَّتها مكفوفة البصر ، وإن كانت تضطلع بشئون المنزل ، ولا يُعْيِيها أن تَطُوف فى الحجُرات كأنها مبصرة . . .

وأقبلنا على رَدْهة صغيرة تحتوى على أثاث ساذَج ، ولـكنه بادى النظافة ، حَسَنُ الترتيب . وواجهتْنى على المُتَّـكَإِ الفسيح امرأةٌ بيضاء الثوب ، على رأسها خِمار ناصع البياض ، و بيدها سُبْحَة تُنَقِّلُ حَبَّاتِهَا بين أناملها وهى تتمتم . وطالعَنى منها وجه سَمْح عليـه إشراق . و إذ أحستْ وجودى نادتْنى باسمى فى تلطّف ، ولما دنوتُ منها مدَّت يدَها إلى رأسى ، وجعلت تتـلو رُقْيَةَ بصوت عذب صافى النَّغَم ، وختمت رُقْيَتَها تُوَالِى الدعاء لى ، وهى تقول :

أنتَ ناجح بإذن الله . . . ستنالُ الشهادةَ على بركة الله !

ثم أجلسَتْنِى بجوارها على المُتَّـكَإِ ، وأمرت « فتحية » بأن تُعِدَّ لى كُوباً من شراب الليمون ، ثم شرعتْ تجاذبنى الحـديثَ فى شئون المدرسة والمنزل ، واستطرَدَتْ من ذلك إلى أن تَسْرُدَ علىّ طَرَفاً من أحداث طفولتها ، وكيف أخذتْ قسطها من حِفْظِ القرآن . وكان حديثُها طَلِيًّا ممتعاً أنسانى مَرَّ الوقت ، وجعلنى أشعر حين انتهت جلستى معها بأنى أتركها على شَوْقٍ إلى المَزِيد .

وأخذتُ مركبتى قافلاً إلى منزلى ، ولم تزل صورةُ السيدة « هاجر » ـ جَدَّة « فتحية » ـ ماثلةً أمام عينى ، وقد أُلْقِىَ فى رُوعِى أنى كنت فى حضرة وَلِيَّةٍ من صفوة الأولياء الصالحين الذين اختلفتُ إلى

أضرحتهم فى صُحْبة زوج أخى والحاضنة « مَسَرَّات » .

وفى تلك الأُمْسِيَةِ وجدتُنِى أنْفُضُ نفسى متحدّثاً إلى زوج أخى ، أَصِفُ زيارتى « لفتحية » وما لَقِيتُه فى جلستى إلى السيدة « هاجر » من حفاوة وتكريم ، وما أكّدَتْه لى من أنى ناجح بإذن الله ، وأنى سأنال الشهادة على بركة الله . فَتَطَلَّقَ وجهُ زوج أخى ، واستزادتنى من وصف تلك السيدة المباركة ، ومما خَصَّتْنِى به من طرائف الأحاديث .

وانصرمتْ أيام قلائل ، ورجعتُ أصيلًا من المدرسة إلى منزلى ، فراعنى أن أجدَ « فتحية » هى وجَدَّتها السيدة « هاجر » فى حجرة الِاستقبال مع زوج أخى . وعلمتُ أن الحاضنة « مَسَرَّات » هى التى ذهبت تدعوهما إلى هذه الزيارة بإشارةٍ من زوج أخى .

وما أسرع أن أخذتُ بيد « فتحية » ماضياً بها إلى الحديقة ، فلما بدأنا نجوس خلالها ، مالتْ علىّ « فتحية » تقول :

أريد أن أرى الجبَّ .

فصحبتُها إلى مكانه ، ووقفنا تُجاهَه لحظةً ونحن فى صمت ، ثم سمعتُها تقول : أحقًّا أنهم كانوا يقذفون فيه باللصوص والمجرمين ؟

— هذا حقّ .

ووجدتُ الصَّبِيَّةَ تخطو نحو الجبّ ، وأنا دَهِش مأخوذ ، ثم ما لبثتْ أن تخطَّتْ عَتَبَتَه ، ووقفتْ ترمى بنظرها فى أرجائه ، واستدارتْ راجعة تقول :

مكان مظلم ، فيه بئر عميقة المهوَى ، لا يبعث منه شىء على خوف !

٧

ترادفتْ أعوام ثلاثة ، وأنا فى هذه المدرسة مع صديقىّ « خيرى » و « الزغبى » نتلازم ولا نفترق . وكانت حظوظُنا فى الحياة متشابهة ، فإذا كان رسوبٌ فى الإمتحان رَسَبْنَا جميعاً ، وإذا كان نجاح فُزْنَا معاً .

ولم تكن أيامُنا تخلو من مشاحَنات تَشُوب ما بيننا من صفاء ، ولكن كان يكفى أن يداعبَ أحدُنا أخاه بكلمة ، أو يجاذبَه بنكتة ، حتى يزول الخِصام ، ويشملَنا الوِئام .

أما « فتحية » فقد أصبحتْ صلتى بها أوثقَ ما تكون ، أزورها وتزورنى ، وكذلك توثقتْ الصلةُ بين زوج أخى والسيدة « هاجر » ،

فهما تتزاوران وتأنَسُ كلتاهما بصاحبتها كلَّ ائتناس .

وخَلَا بيتُ « فتحية » من « سرحان » ، فقد كَبِرَ ، وباعه « محيي الدين افندى » لأحد السَّقَّائين فى الحىِّ الذى يقيم فيه ، فكان السَّقَّاء يَشُدّ الحمار إلى عَرَبَةٍ تحمل قِرَبَ الماء ، فيظلّ مُطَوِّفاً بالحارات والأزقّة طولَ النهار .

وقد يَحْدُثُ أن أكونَ أنا و « فتحية » فى فِناء بيتها نلعب ، فنسمع نَهيقَ الحمار ، فى بعضِ الطريق ، فتغشانا كآبَة ، ونُحِسّ كأنه يُهيب بنا أن نعينَه على أمره ، وأن نواسيَه فى محنته ، فنخرج له نتلقَّاه فى شغف وتَحْنان ، ولا تَعتِمُ « فتحية » أن تُلقِمَه قطع السكر فى رِقّة وملاطفة .

والتحقتْ بمنزلنا خادم نَيَّفَتْ على الخمسين ، تُدْعَى « أم خُضَيْر » ، وَكَلَتْ إليها زوجُ أخى الإشرافَ على مخزن المَئُونة ، وكانت امرأة صَخّابة سَليطة ، لا يَكِلُّ لها لسان ، ما إن تفرغُ من مشاكستها للطاهى حتى يَنْشَب بينها و بين سائر الخدَم عِراك . وكثيراً ما فَزّعَنى صياحها من نومى ، فأنهضُ فى سخط . ومرّاتٍ أقسمتُ أن أشكوَها إلى زوج أخى ، ولأمرٍ مّا تهيّبْتُ أن أفعل .

وكانت زوجُ أخى تَحْمَدُ لها مشبوبَ نشاطها فى خدمة الدار ،

ودأبها فى رعاية المرافق ، دون حَفْزٍ أو توجيه .

وعلى الرغم من سَلاطتها وشَغَبها ، لم يكن الخَدَم يضيقون بها ذَرْعا ، إذ كانت تؤنسهم فى ساعات صفوِها بألوان من المُفاكهة والمِزاح .

ويوماً قَدِمَتْ علينا « فتحية » هى وجَدَّتها ، لِتَبيتَ كلتاهما ضيفين فى البيت ، وطاب السهرُ لى مع « فتحية » بعد العَشاء ، فلما أثقل علينا النوم ، ولم نستطع له غِلابا ، قمتُ أرافقها إلى مَخْدَعها ، فى حجرة الضيافة ، وكانت مستقلةً فى جَناح بعيد . فَجُزْنا فى مسيرنا بحجرة « أمّ خُضَير » ونحن نخطو على هِينَةٍ ورفق ، فتناهتْ إلى سمعَينا أصوات غير مألوفة ، فوقفنا بباب الحجرة ننصت ، وما لبثتُ أن سددتُ نظرى فى فُرْجَةِ المفتاح ، فرأيتُ عجبا : « أمّ خُضَيْر » ترقص فى تبَذّل ، ومن حولها جمع الخادمات يطبّلن ويصفقن ويغنّين ، وزَحَمَتْنِى « فتحية » تريد التفرّج ، وأخذتْ مكانى فى تشوّف وتعجّل . ولكن سَرْعانَ ما تخلت عن الباب ، وهى تبادلنى النظراتِ فى دهشة وتخاجُل . وتابَعْنا سيرَنا صامتَيْن .

كانت « أم خضير » زوجاً لرجلٍ يُسَمَّى « بابا درويش » ، وقد أطلق عليه الناس هذا اللَّقَب ، لأنه كان يضع على رأسه طُرْطُوراً متطاولا ، على نحو مايلبس « الدراويش » . وكنتُ أراه يتردَّد على منزلنا زَرِيَّ الملبس ،

يلفّ على طُرْطُورِه عمامة خضراء ، وفى كل مرةٍ يطرُق الدار يخرجُ إليه « بشير أغا » ليناولَه مبلغاً من المال ، تمنحُه زوجُ أخى إياه . وأذكر أنى لمحتُه غيرَ مرة يقصد إلى باب الحَرَم ، فى مُسارقة وتلصّص ، فتلقاه زوجُه « أمّ خُضَيْر » وتُلْقى إليه صُرَّة لا أدرى ماذا تَحْوِى ، وتناقشه فى إمرة جارحة وتسلّط مُذِلّ ، فيتضاحك الرجل فى عَبَث وتهريج ، وينصرف حاملا الصُّرَّة ، غَيْرَ لَاوٍ على شىء ، فيتبعه من يصادفُه من الخَدَم ، وهم يماجنونه ويناوشُونَه فى غير احتشام .

وحلَّ يوم مرضَتْ فيه الحاضنةُ « مَسَرَّات » ، إذ تَوَرَّمَتْ قدماها ، فلم تَعُدْ تقوَى على النهوض . ولزمتْ حجرتَها لاتبرح المَخْدَع ، فاضطلعتْ « أم خضير » بما كانت تضطلع به الحاضنة من شأنى . والحقّ أنها كانت تؤدّى عملها على خير ما يجب ، ولا سيما إذا اقتضى الحال دقةً فى الرعاية والتعهُّد ، فإن انحرفتْ صحتى ألفيتُ « أم خضير » أنشطَ ما تكون فى خدمتى وتمريضى . ولكنها كثيراً ما شارَ كَتْنِى غيرَ مَدْعُوَّةٍ فى طعامى ، وطالما قَرَّبتْ لى صَحْفَةَ الحَسَاء خاليةً من الدَّجاجة ، مُدَّعِيَةً أن القطَّ التهمها ، وأنها لن تُنْجِيَه من العقاب !

٨

وكانت « تهـانى » تزورنا مع جَدَّتها « إجلال هانم » فى الحين بعد الحين ، والتقتْ فى بعض زَوَرَاتها « بفتحية » ، فتمّ بينهما التعارُف ، ولـكن « تهـانى » لم تكن تهبِط من عليائها لتلاعبَ « فتحية » أو تتبسَّط معها فى الحديث .

واتفق لقاؤهمـا فى منزلنا ذاتَ يوم ، فأنـكرتْ « فتحيةُ » من « تهانى » تحيتها الجافية المتعالية ، ولم تلبثْ أن استَخْفَتْ ، فلم يستَبِنْ لها فى المنزل ظِلّ ، وما توانيتُ فى البحث عنها ، بيد أنى لم أجدْها إلا حين تَحَلَّقْنَا جميعاً حولَ مائدة الغَداء .

وفَطَنْتُ إلى أن « تهانى » تُخَالِسُ « فتحيةَ » نظرات سُخْرِيَةٍ واستهزاء ، ثم تميل على جَدَّتها تُسِرّ إليها بعض الـكلمات ، وشعرتُ بأن « فتحية » تغالب التبرّم والضيق ، على تظاهرها بالسكينة ، كأنها غيرُ مبالية .

و بعد أن استوفَيْنَا قِسْطنا من الطعام ، ترك الجمعُ مقاعد المـائدة ، وخلا المـكانُ لنا نحن الثلاثة . أنا و « فتحية » و « تهانى » .

وخَصَّتْنِي « تهانى » بالحديث ، قائلةً فى صوتٍ غيرِ جَهِير :

فتاة من عامَّة الناس ، لا تليقُ بما لنا من مَقام !

فأحسستُ بأن أوصالى قد جَمَدَتْ ، وأنى إن أطلقتُ لسانى أسمعتُ « تهانى » ما تكره ، ورأيتُ « فتحية » تنهضُ صامتة تريد الخروج ، وسمعتُ « تهانى » تتابعُ قولَها فى صوت أجهرَ من ذى قبل :

انظُرْ إلى جَوْرَبِها ... جورب ولا كالجوارب ... آخرُ بِدْعَة!

وانبعثتْ ضاحكةً فى توقُّح ، ولا أدرى كيف احتبسَ الكلامُ فى فمى ، فلم أنبِسْ ، على حين أنى كنتُ أغلى كالمِرْجَلِ الفوَّار .

ورمقتْنا « فتحية » بنظرة حادّة ، وانصرفتْ فى خُطًى سِرَاع . وعلمتُ فيما بعدُ أنها غادرتْ البيتَ مع جَدَّتِها السيدة « هاجر » بعد الغَداء بقليل . فلبثتُ وقتى مع « تهانى » ضائقَ الصدر ، كئيبَ النفس ، على الرَّغْم مما حاولتْه هى من إيناسى وابتعاثِ نَشْطَتِى للهو والمِرَاح .

وما إن آذنتْ الشمسُ بالغيوب ، حتى انصرفتْ من الدار « إجلال هانم » ومعها « تهانى » ، فشعرتُ بعد انصرافها كأنما انزاح عن كاهلى عِبْء ثقيل . ولكن طيفَ « فتحية » ظل يلمَح أمام عينى ، وكأنها تعْتِبُ علىَّ فيما كان من سكوتى ، وتسألنى : كيف وقفتُ مكتوفَ اليدين إزاء الإهانةِ التى ألحقتْها « تهانى » بها ؟

وحان موعدُ النوم ، فرأيت « أم خضير » تطرُقُ حجرةَ مخدعى لِتُسَوِّىَ الفراش ، وتملأْ قُلّةَ الماء ، وساوَرَتْنِى فكرة لم أملك لها دفعاً ، فاقتربتُ من المرأة ، وهمستُ أقول لها فى ملاينة ورجاء :

أترضَين أن تؤدّى لى خدمة هَيِّنَة ؟

فنظرت إلىّ ، وهى تبتسم ، ثم قالت :

على العين والرأس . اطلبْ تجدنى خادمتك .

فأحجمتُ عن الكلام لَحَظات ، وأنا مطأطئٌ أفرك إحدى يدىّ بالأخرى ، ثم اندفعتُ أقول : أريد أن تشترِى لى شيئاً . أريد أن تختارِيه من أحسنِ نَوْع . كم قرشاً تطلبين ثمناً له ؟

فرنّتْ ضِحْكَتُها ، وهى تقولُ معاتِبَةً :

كيف لى أن أطلبَ منك ثمَنَ شىء لا أعرفُ ما هو ؟

— زَوْج من الجوارب ، من أحسن صنف .

— أفى حاجة أنتَ إلى زوج من الجوارب ، وصِوانُكَ مملوء بالجديد منها والقديم ؟

— لا أُريدُه لى . . . أريده . . .

وأُرْتِجَ علىَّ ، فلم أَلفِظْ من قول . وشعرتُ بالدم يضطرم فى وجهى ، وسمعتُ المرأةَ تقول ، وقد غمزَتْ بحاجبها :

أتُتِمْ . . . أتريدُه جوربا نِسْوِيًّا ؟

فغمغمتُ قائلاً : نعم .

فتدانتْ المرأةُ منى ، وهى تقول ، وقد برَقَتْ عينُها :

لأيةِ الفتاتين تريدُه ؟ . . . لهذه أم لتلك ؟

فأجبتُها محتبسَ الصوت : أُريدُه « لفتحية » . . .

— حَسَناً ، حسناً . . . سأُحْضِرُ لك الجوربَ من أحسن صنف .

وسرعان ما تدانتْ منى ، ومدَّتْ يدها إلى خَصْرى تُدَغْدِغُنى ، وهى تقول : طِبْ نفْسًا وانتعش . . . وخَلِّ عنك الخَجَلَ والِاكتئاب .

وفى غدى ، وأنا خارجٌ من المدرسة أصيلا ، أعْتَلِى المَرْكَبَةَ ، ناولنى السائقُ « مدبولى » لَفِيفَةً صغيرة ، وأخبرنى بأن « أم خضير » أوْصَتْه بأن يُسْلِمَها إلىّ ، فأحسستُ بقلبى دائبَ الخفقان ، وجعلتُ أقلِّبُ اللفيفة بين يدىّ ، وأنا مهتاج ، ولطالما هَمَمْتُ بأن أفتحها لأتبيَّنَ ما تحويه ، ولكننى ملكتُ نفسى ، وآثرتُ أن أُبْقِىَ اللَّفِيفَةَ على حالها ، وقلتُ للسائق « مدبولى » :

خُذْ طريقَك إلى منزل « محيى الدين افندى » . . .

وما كِدْنا نصل ، حتى قفزتُ من المركبة عاجلاً إلى المنزل ، فصادفتُ « فتحية » فى الفِناء ، بين يديها ديباجَة تُعْنَى بتطريزها ،

فلما أحسَّتْ مَقْدَمِي ، أَلْقَتْ عليَّ نظرة عابرة ، وانكفأت على ديباجتها كأن لم ترَ شيئاً . وفى هذه اللحظة وجدتنى كأنما صُبَّ على رأسى دَلْوُ ماء بارد ، فتثاقلتْ خُطاى ، وعَلَنَ لى أن أتركَ المنزل راجعاً ، ولكنى لم أملِكْ إلا أن أتقدَّم على هِينَة ، وأن آخذَ مكانى بجوارها ، على دَكَّة الخشب . وشرعتْ أناملى تَعْبَث باللَّفيفَةِ معى وأنا صامت ، وشاهدتُ الجورب يَبْرُزُ من جوانب اللفيفة هَفْهَافاً رقيق الحاشية ، فاهتزَّ لِمَرْآهُ قلبى ، والتفتُّ عجلانَ إلى « فتحية » ، ومددتُ لها يدى بالجورب فى اهتمام وتحمّس ، وقلتُ :

لقد أحضرتُ لكِ شيئاً يا « فتحية » . . .

فعدلتْ ببصرِها نحوى وهى تقول : لى أنا ؟

وما إن رأتْ الجوربَ فى يدى ، حتى ازورَّت عنى ، و بغتةً غَطَّتْ وجهها بكفَّيها ، واندفعتْ تَنْشِج وتقول محتدّة : لستُ فى حاجةٍ إلى جورب . . . لستُ فى حاجة إلى شىء . . . دَعْنِى وشأنى !

وتحرَّجَ موقفى ، واشتدّ ارتباكى ، فأعدتُ الجورب إلى لَفيفَتِه ، وانهمكتُ أعقِدُ اللفيفة كما كانت ، وهَمَمْتُ بالانصراف ، ولكننى ألفيتُ « فتحية » تتمادَى فى نشيجها ، و يتعالى نحيبُها ، وخَشِيتُ أن يبلغَ الصوتُ أسماعَ جدَّتها ، أو يفاجئنا أبوها فيراها على تلك الحال ،

وحَزَبَنِى أمرى ، فزَوَيْتُ ما بين عينَىَّ ، تستغرقُنى الحيرة ، ولمحتُ السائق « مدبولى » يَلُوحُ ويختفى ، وهو يرقُبنا رِقْبَةَ المتطلِّع ، ثم رأيتُه مقبِلاً علينا ، وهو يقول :

ماذا جرَى ؟ لماذا لا تتلاعبان ؟

ثم قَصَدَ إلى « فتحية » فربَّتَ كَتِفَها ، وقال لها :

أهذا وقتُ غضب و بكاء ؟ تعالَىْ معى . . .

وذهب بها إلى صُنْبُورِ الماء ، فى أقصى الفِناء ، فغسل لها وجهها ، وجعل يُضاحكها و يفاكهها ، حتى سُرِّىَ عنها ، وعاد بها إلى جِوارى ، وقال لى فى لهجة الآمر : قم فَقَبِّلْ رأسها .

وأطعتُ دون جِدالٍ ، فالتفتَ السائقُ « مدبولى » إلى « فتحيةَ » قائلا : لا يصحّ أن ترفُضى هديةً يقدّمها إليكِ أخوكِ .

وأخذَ اللَفِيفةَ منى فقدَّمها إليها ، فتقبلتْها منه ، و إذا هو يقول لها : جاء دَوْرُكِ . . . قومى الآنَ فقبِّلِى رأسَ أخيك .

فلم تتمنَّع ، ولبثَ معنا السائقُ « مدبولى » وقتاً يثير تضاحكَنا بمعابثاته ونِكاته ، و يدفعنا إلى الِاشتراك فى اللعب معاً ، حتى صفَا ما بينى و بين « فتحية » ، وعادتْ إلى مألوفِ شأنها من مَرَح و إيناس .

وكنتُ فيما بعدُ كلما لَقِيتُ « فتحيةَ » تطلعتُ فى شَغَف إلى ساقيها ، لأنظرَ ما تكتسيان من جَوْرب ، فألاحظُ أنهـا اقتَنَتْ جواربَ كثيرة ، وأنهـا كانت أشدَّ ما تكون عنايةً بتخيُّر ألوانها وأنواعها ، ولـكنى لم أرها يوماً تلبَس الجوربَ الذى أهديتُه إليها ، ولم يَدُرْ بيننا يوماً مّا حديث فى شأن ذلك الجورب المنبوذ !

٩

هأنذا بعد أربعةِ أعوام أبلغُ السادسةَ عشرةَ ، ومع ذلك فما أزال فى مدرستى الابتدائية المعهودة ، مؤتنساً فيها بصحبة قرينىَّ « الزغبى » و « خيرى » ، نؤلِّف معاً ثالوثَ التلاميذ الكبار أصحابِ النفوذ والسلطان ، يتهيَّبُنا سائرُ أبناء المدرسة ، ويحسُبُونَ لنا ألفَ حِسَاب !

أما « تهانى » فقد سافرتْ بهـا جَدَّتُها « إجلال هانم » إلى « استانبول » منذ أعوام ثلاثة ، ولم أعلمْ من أمرهما إلا أن « تهانى » أُلحِقَتْ هنالك بالقسم الداخلىّ فى إحدى المدارس الفرَنْسِيَّة .

ورَوَّعَنِى يوماً على حينِ فجأةٍ نَبَأٌ فاجـع ، ذلك هو وفاةُ

« محيي الدين افندى » فغَشِيَتْ المدرسةَ يومئذ غاشيةٌ من الأسى ، وراح التلاميذ يتناقلون الحديثَ فى هذه الفاجعة ناكِسِى الرءوس ، مكتئبى النفوس .

تلقتْ السيدةُ « هاجر » هذه الصدمةَ بصبر واحتمال ، ولكن الحزن كان يَسْرِى فى طواياها ، فينالُ منها مَنالَ السُّوسِ من خَشَبٍ غليظ . على أن ذلك الحادثَ الأليمَ كشف عن مَعْدِنِها الأصيل وجوهرها الكريم ، فقد نَشِطَتْ لمواجهة مطالبِ العيش فى إباء وعزَّة نفس . وكان أولَ ما لجأتْ إليه من تدبير أنها انتقلتْ إلى شِقَّةٍ صغيرة فى منزلٍ بحيِّ « السيدة زينب » ومارسَتْ نوعاً ملائماً من التجارة تستطيعُ الِاشتغالَ به ، ذلك هو أن تتنقَّلَ فى بيوت المُوسِرِينَ حاملةً طرائفَ من الأمتعة والثياب وأدوات الزِّينة ، فتبيعها لربَّات البيوت نَقْدًا أو نَسِيئة . وكانت « فتحيةُ » ساعدَها الأيمَنَ فى هذا الشأن ، إلى جانب تَكَسُّبِها بالحياكة والتطريز .

وكثيراً ما كانتْ زوجُ أخى تُضِيفُهما أياماً ، وتواليهما بألوان من المبرَّات ، فأقضى مع « فتحيةَ » أوقاتاً مُؤْنِسَة . وكنتُ أعرف من نفسى أنى كلما لاقيتُها شعَرْتُ بأنى أستطيبُ الحياة ، وأستجيبُ لواجب المدرسة ، وأجدُنى كأنما أُوتيتُ القُدْرَةَ على مغالبة المصاعب

واجتيازِ العقبات ، فلا ألبثُ أن أفكرَ فى قابِلِ أيامى ، فيزدحمَ رأسى بشَتّى المشروعات والْخُطَط .

وكنتُ أتحدَّث إلى « فتحية » وأنا شارِدُ النظر ، هائم الفكر ، أقول :

حينما نَكْبَر يا « فتحية » سنحقّق معاً عِظام الآمال ، وسننهض بِجِسام الأعمال .

فتنظر إلىّ ، والدهشةُ ملء عينيها ، ثم لا تعتمّ أن تقولَ فى صوت ليِّن النَّبَرات : إن شاء الله . . . إن شاء الله .

وكان يحلو لى ، وأنا فى ساعةِ استذكارى للدروس ، أن أستَبْقِيَها فى حجرتى ، فتعكُف على ديباجتها تطرّز ، وأنا مُكِبٌّ على كتبى وكراساتى .

على أن هـذا لم يكن يمنع أن أرفعَ رأسى فى الفينة بعد الفينة ، أختلس النظرَ إليهـا ، فأراها فى ضوء المصباح قد تألّقَ مُحيّاها فاتن القَسِمات ، فأظل أتملّى تلك الفتنة ، يحدونى باعث كمين .

وقد أرى « فتحية » ترفع هامتَها عن الديباجـة ، ناظرةً إلىّ ، فتباغتنى وأنا أرنو إليها ، فنتبادلُ الابتسام ، ولا نلبثُ أن تعرُوَنا خَجْلَةٌ واضطراب .

وليلةً دخلتْ علينا « أم خضير » ونحن معاً فى حجرتى ، على هذه الحال التى أسلفتُ وصفَها ، فجعلتْ تنقِّلُ نظرها بين «فتحية» و بينى، ثم همهمتْ :

أما كَفَاكُما شُغْلاً ؟ . . . استريحا قليلا . . . رَفِّهَا عن نفسيكما وقتاً . . . المَثَل يقول : ساعةٌ لقلبِك !

ثم تدانَتْ منى ، وانحنَتْ على أذنى كأنما تريد أن تسِرّ إلىَّ الحديثَ ، ولكنها على الرغم من ذلك رفعتْ صوتَها تقول :

لو كنتُ مكانَك لما جلستُ هكذا أنكفئُ على مكتبى كشيخ هَرِم ، بل كنتُ أجلس بجانبها أقطِفُ لى من خدِّها قبلة مُنْعِشَة !

فساوَرَتْنِى رَبْكَة ، واضطرم وجهى ، وانعقد لسانى ، فأما « فتحية » فقد نهضتْ من فورها ، وهى غَضْبَى تقول :

ما هذا الكلام الفارغ يا « أم خضير » ؟ . . .

وما عَتَّمتْ أن غادرت الحجرةَ ، قلقةَ الخطا .

وما إن مضتْ عنى « أم خضير » وخَلَتْ لى أركان الحجرة ، حتى رأيتنى أَعْمِدُ رأسى بيدى ، وأَهِيمُ فى حلم بَهِيج تَرِفُّ فيه تلك القُبْلَة المنشودة التى أطبعُها على خَدّ « فتحية » . . .

وكنت أشعرُ بوحشة حين تنقضى ضيافةُ صديقتى ، ويغيبُ عن عينى مَرْآها ، فأجدُنى مَلُولاً فاترَ الهمة غيرَ مقبلٍ على الدرس والاستذكار . . .

١٠

ولم تكن عينى تَقَع على أخى « حمادة » إلا لِماماً ، فإذا لَقِيتُه تَجَهَّمَ لى ، وبدا كالحَ الوجه ، يُحَيِّينى بتحيته المعهودة ، قائلا :

ولد بليد فاسد !

ويستأنفُ خَطْوَه نائياً عنى بِجَنْبِه ، وقد أكسبَ قَسَماتِه أماراتِ التأفُّفِ والاستكبار . . .

ولم يكن أخى يزيدُ شيئاً على هذه الجملة التى أَلِفْتُها منه ، مختصراً فيها نصائحه وتوجيهاتِه وألوانَ رعايته .

ولقد كنتُ أَعْثُرُ على الرسائل المدرسيَّة الخاصةِ بى مغلقةً لم يُفَضَّ غِلافها ، مبعثرةً على المناضد أو فى إحْدَى زوايا الحُجَر .

ولاحظتُ أن أخى تستَبين فيه علائم الشيخوخة ، مع أنه لم يكن

وقتئذ قد جاوز الخامسةَ والأربعين ، فهو يبدو شاحبَ الوجه ، كثيرَ الغضون ، متقوّس القامة ، لا تفارق الرَّعْشَةُ يدَه .

وكلما شَهِدْتُه على تلك الحال ، يغالب شيخوختَه الباكرة ، يدركنى عليه بعضُ إشفاق ، على الرغم من إزْرَائِه بى ، وتقطُّعِ الأسبابِ بينَه وبينى .

١١

وحَلَّ بنا « شهرُ رمضان » ذلك الشهر المبارك الذى يُضْفِى على البيتِ رَوْنَقًا وبهاء . فما إن يَميلُ ميزان النهار حتى تنبسطَ الموائد شَتَّى للرجال والنساء ، فإذا تجاوَبَتْ مآذنُ المساجد بأذانِ المغرب ، استقبلتْ تلك الموائد ضِيفانَها من خاصَّة الزوار ، أو من القُرَّاء والأتباع ، وقُدِّمَتْ قِصاعُ الثَّرِيد مُكَلَّلَةً بقطع اللحم لمن يحتشِدُ بالبابِ من العُفاةِ عابِرِى السبيل .

وفى طوايا الليل تتلألأُ الأنوارُ فى جَنَبَات الدار طَوَالَ الشهر ، كأنما هى ليالى عُرْسٍ موصول . ولا تزال الدار فى حركة دائبة حتى

ساعةِ السَّحور ، والقُرَّاء يتبارَوْنَ فى تلاوة القرآن ، على اختلاف الألحان ، وينشدون المُوَشَّحاتِ النبوية رائقةَ الأنغام . كما كانت صلاةُ الجماعة تقام فى جلال وخشوع ، فتعمرُ الدار بِرُوحٍ لطيف من التديُّن والإيمان لا تزَمُّتَ فيـه ولا استيحاش ، ولـكنْ صفاء يتيح للنفوس التقلبَ فى أعطافِ المَرَحِ والإيناس .

وكان بَطَلُ المَوْسِمِ فى ليالى « شهر رمضان » هو « بابا درويش » زَوْج « أمِّ خُضَيْر » . . . فلم يكن يبرحُ الدارَ خلالَ الشهرِ كلِّه ، يقطع أغلبَ نهاره نائماً فى حجرة القُرَّاء ، فإذا ما تأهبتْ الدار لتقديم موائد الإفطار تعالَى صوتُه مجلجلا ، وتراءى شخصه متنقِّلا ، فبينا هو بالباب يشاحِنُ العُفَاةَ من عابرى السبيل فى تطاول وتأمّر ، إذا هو بين الخاصَّة من الضيوف يقبِّل يدَ هذا ويتملَّق ذاك ، ويحاول أن يُشْعِرَ مَن هنا ومَنْ هناك بما يؤدِّى لهم على الموائد من خَدَمَات . . .

وبعد صلاة العشاء والتراويح ، يُقْحِمُ نفسَه حاكماً مهيمناً يوهم الجمعَ أنه يَضَعُ نظام النـلاوةِ بين القُرَّاء ، ويعيِّن مراتبَ الوافِدِين للسماع ، لا يَصُدُّه عن ذلك كله ما يلقاه من سُخْرِية واستهزاء .

وكان مِن تَلَطُّفِ زوج أخى أن استضافتْ السـيدة « هاجر » و « فتحية » لتقضيا عندنا هـذا الشهرَ الـكريم ، فاستجابتا للدعوة ،

وأمضيتُ مع « فتحية » فترةً من الزمن تمليتُ فيها أطيبَ ما فى الحياة .

كنا نطعَم معاً في فَطُورٍ أو سَحُور ، ولا ألبثُ حين عَوْدَتِى من المدرسة أن أَعْجَلَ إليها وهى تنتظرنى بجوار النافورة فى الحديقة ، فنجلس معاً نُلقى إلى الإوَزّ والبط مايتيسَّر من الطعام . وكان يطيب لنا المكوثُ جَنْباً إلى جنب ينعقِدُ بيننا صمت ، وفى الفينة بعد الفينة تتهادَى سوانحَ النظرات والبَسَمات . ومتى ارتفع صوتُ المؤذن بالتكبير ، داعياً إلى الإفطار ، صَحَوْنا من غفوة أحلامنا ، وكلٌّ منا يقرأُ فى عين صاحبه أَسَفاً على انقطاعِ غفوةٍ مُحَبَّبَةٍ تلوحُ فيها مباهجُ الأحلام .

وكنا نقضِى السَّهْرَة معاً فى البهو الكبير ، نستمع مع الوافدات على الدار من الضيوف إلى قارئةٍ رخيمةِ الصوت تتلو آىَ الذكر الحكيم ، ونخرج أحياناً إلى الفِناء الداخلىّ نتسلَّى بما تخوضُ فيه الخادماتُ من مُلاعَبات ومفاكهات وأَسْمار .

وليلةً خلوتُ بنفسى فى حجرتى تؤنسنى لطائفُ أحلام ، فأَنْبَهَنى على حين فجأةٍ شخصُ « أمّ خُضَيْر » ماثلاً فى الحجرة ، ونالَنِى ذُعْر ، وسمعتُها تقولُ فى صوتٍ عابث :

مَعْذِرةً . . . لقد أزعجتُكَ من أحلامك !

فأجبتُها ، وأنا أحاول ضَبْطَ النفس : أيَّةَ أحلام تَعْنِينَ ؟

فتدانَتْ منى ، وابتسامتُها تتلعَّب على شفتيها ، وقالت كأنها تَهْمِس :

قَسَماً إنى لأعلم ماذا يَشْغَلُ بالَك !

وازدادتْ من دُنُوِّها ، وهى تُواصِلُ حديثَها :

كلّ الشبّان فى مثل سِنّك يَعْشَقُونَ !

فصرفتُ عنها بصرى ، وأنا مضطربٌ ، فتابعتْ قولَها :

ولكنى لم أرَ شابًّا أجهلَ منك بشئون الغرام والهُيام !

وجعلتْ المرأة تتلفَّتُ حوالَيْها ، ثم تَهْوِى على أذنى بفمِها قائلةً فى خفوت : إذا جاءتْك فَأَغْلِقِ البابَ عليكما دون أن تُشْعِرَها بأنك تفعل . . . لا تُضِعِ الفرصةَ يا أبْلَه !

وأحسستُ بأن « أم خضير » تكاد تلامِسُ بخدِّها صفحةَ وجهى ، وَهبَّتْ علىّ أنفاسُها الثِّقال ، فتناءيْتُ عنها ، وأنا أشعُر بخشية وتقزز . أما هى فاستمرتْ تقول : البنتُ مثلُك بلهاء ، لا تحسِنُ الملاعبةَ !

ثم وقفتْ متأوِّدَةَ الخصْر ، غَمَّازَةً بالحاجب ، تتلعَّبُ أصابعُها تمثيلاً للموقف ، وهى تقول : حينما كنتُ فى سِنِّها كان عِلْيَةُ الناس يتزاحَمُون عَلَىّ ، ويتغزَّلُونَ فىّ ، ويتنافسون فى استهداء قُبْلَةٍ منى !

ورأيتها تُولِينى ظَهْرَها ، ماضيةً تتخطّر . ولما بلغتُ البابَ استدارتْ تواجهُنى بقولها : لا تنسَ نصيحتى . . . كُنْ شجاعا !

واستَخْفَى شبحُها عن عينى ، فَهُرِعْتُ إلى الباب أُغْلِقُه علىّ بالمفتاح وقضيتُ ليلتى فى بحرٍ لُجِّىٍّ من المشاعِرِ والتصورات . . .

١٢

وسمعتُ يوماً أن « إجلال هانم » و « تهانى » رَجَعَتَا من « استانبول » وأنهما معتزمتان زيارتَنا فى ضَحْوَةِ غد ، فكانتْ مباغتة دَهِشَ لها أهلُ الدار ، ولاحظتُ على « فتحية » وجوماً وهَيْجَةَ نفس ، وفاجأتُها وهى تنتحى بجَدَّتها ناحية ، وتحثّها على مغادرة الدار ، فاعترانى ضِيق ، ونظرتُ إلى « فتحية » فى حيرة وإشفاق ، ولم أدَّخِرْ وُسْعاً بعد ذلك فى أن أُسَرِّىَ عنها ، وأن أتلطَّفَ بها كل التلطُّف .

وفى أصيلِ غدى ، حين عُدْتُ من المدرسة إلى المنزل ، ألفيتُ السيدة « هاجر » و « فتحية » جالستَيْن فى ركنٍ من أركان البهو ، مع القارئة . وكانت « فتحيةُ » تَلْزَمُ الصمت ، وفكرُها فى شُرود ،

ولما أحستْ بى مُقْبِلًا، على شَفَتَىَّ ابتسامُ ترحيب ، أَرْعَتْنِى نَظَرَها فى شىء من التكلف ، فقصدتُ إليها ، واتخذتُ مجلسى بجانبها أنفُضُ لها جَعْبَةَ الأخبار .

و بينما نحن على تلك الحال ، تناهَتْ إلينا جَلَبَةُ مركبة بالباب الكبير ، فَشَمِلَنَا إصغاء ، وتبادَلْنا نظرةً ذاتَ معنى ، ورأينا بعضَ الخادمات يهرولنَ إلى حجرة زوجِ أخى . . .

و بعدَ لحظات تتابعتْ الحركة ، وسمعتُ أصواتاً تبينْتُ لمن هى على الفور ، ثم رَنَّتْ ضحكة مديدة فيها نعومة وطراوة ، فالتفتُّ إلى « فتحية » فإذا وجهها مُمْتَقَع ، وما هى إلا أن شهِدنا « إجلال هانم » تعتمد على ساعد « بشير أغا » وتسير سيرَها الواهن الوئيد ، وعن يسارها « تهانى » تخطو خطوات الظبى المَرِح ، وتنثر حولها البسمات خَلَّابةً ساحرة ، وخلفهم جمع من الحاشية والأتباع .

وأسرعتْ زوج أخى تستقبل الضيفين فى وسط البهو ، وتشتبك معهما فى مُلاثَمة وعناق . ووجدتنى أتقدَّم نحوهما ، واثنيتُ على يد « إجلال هانم » أُقبِّلها ، فحيَّتْنِى ولاطفتْ رأسى ، وكانت يدُها كما عهدتُها تلك اليد النَّقِيَّة الأَدِيم ، الرقيقة البَشَرة ، التى ينفَح منها عطرها المألوف . ولما رفعتُ رأسى أمام « إجلال هانم » استبان لى على الفور

ما صنعت الشيخوخة بذلك الوجه الوديع ، ولم أكن أحسَب أن أربعةَ أعوام تستطيع أن يكون لها ذلك الأثر الوخيم . ورأيتُ شفتيها ترتعشان ، وهى تبتسم لى ، فى ملاطفة وتَحَنّن . فنالنى عليها تحسّر ، وَوَدِدْتُ أن تتاحَ لى فرصةٌ أعاود فيها تقبيل تلك اليد الكريمة.

ثم عدلتُ ببصرى إلى « تهانى » ، فَخُيِّلَ إلىّ أن جَسَدَها كله يبتسم فى تألق ، وراعنى أنها أصبحت فارعة القامة ، يانعة الأوصال. فصافحتُها صامتاً ، خافضَ البصر .

ومضينا جميعاً إلى حجرة الزُّوَّار ، وحانتْ منى التفاتة ، فلمحتُ « فتحيةَ » ماثلةً حيث تركتُها بجانب جدَّتها ، لا يعبأُ بها أحد ، فهممتُ أن أرجع إليها ، ولكنى ألفيتُنى فى الركب منقاداً لاقِبَلَ لى بالنُّكُوص .

وكانت « تهانى » آخذةً بيدى ، وهى تنظر ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال ، وتتحدَّث إلىّ فى شأن الدار ، تَعْجَب لها كيف هى على حالها لم يتبدَّلْ من أمرها شىء ، كأنَّ آخرَ عهدِها بها أمسِ .

واحتوَتْنا حجرة الزُّوَّار ، وتناقل الجمعُ أحاديثَ متعانقة متلاحقة ، كانت « تهانى » ضَجِرَةً بها ، تُبدى فى جلستها علائم التململ والقلق .

وبعد قليل رأيتُها تُمْسِك يدى ، وهى تقول :

بِنا إلى حديقة الدّار .

ورجعنا نجتاز البهو ، فمررنا بالقارئة فى مجلسها صامتةً ترتقب أَذَان المغرب ، فأما « فتحية » وجدَّتها السيدة « هاجر » فلم أجد لهما من أثر .

ونزلنا إلى الحديقة نجوس خِلَالَهَا ، وكانت « تهانى » تتباطأ فى مشيتها ، يتموَّج على جسدها ثوبها الحريرىّ الهفهاف ، ذو اللون الوردىّ . ووجدتُنى أُخَالِسُها النظرَ متملِّياً وجهها الوَضِىء ، تَرُوعُنِى فيه عينان مكحولتان ، ينحسر دونَهما البصر .

وأخذنا بأطراف الأحاديث ، وراحتْ « تهانى » تقصّ علىّ من أنباء حياتها فى « استانبول » ، وتتقصَّى أنباء حياتى الخاصَّة فى المنزل والمدرسة .

وبغتةً ألقتْ علىّ نظرةً فاحصة ، وقد ارتسمتْ على فمها ابتسامة واضحة ، وقالت لى : لقد أصبحتَ رجلاً يا « سامى » . . . لقد نَبَتَ شاربُك !

فابتسمتُ لها وأنا أقول : لم يَعُدْ لائقاً بنا الآن يا « تهانى » أن نلعبَ لُعْبَةَ الاستخفاء ، أو نتسلَّقَ عرائشَ العنب !

وتضاحكنا طويلا ، ونحن نتذاكرُ تلكَ العهود الخالية . وما زلنا فى سيرنا ، حتى بلَغْنَا الظُّلَّة القائمة بجوار النافورة ، فتبينتُ من « تهانى » رغبةً فى الجلوس ، فاستجبتُ لرغبتها ، وأسرعتُ أُخْرِج منديلى فَأَبْسُطُهُ لها على المَقْعَد الخشبىّ ، فأشرق وجهُها ارتياحاً ، وجلستْ فى رشاقة وهى تقول : شكراً لك يا « سامى » .

واستأنفتْ تتحدَّث فى شئون حياتها أثناء غيبتها فى « استانبول » وكانت تُفْعِمُ أحاديثَها بوصف ما لقيتْ فى تلك المدينة العظيمة من حفاوة وتكريم . فقد أغدقَ عليها سَرَاةُ المدينة وعِلْيَتُهَا ألواناً من الهدايا والتُّحَف . ولقد تنافسوا فى التودُّد إليها ، والتعلُّق بها بكل سبيل ، ولقد ضاقتْ ذَرْعاً بما كان ينتهى إليها من رسائل المُعْجَبين .

وتسامَتْ برأسها فى خُيَلاء ، وهى تقول : حينما تزورنا فى منزلنا سأريك هذه التَّذكارات من الهدايا والرسائل .

وجذبتْ ثوبها لتسوِّىَ جَوْرَبَها ، فبدتْ ساقُها بديعةَ التكوين ، ولمحَتْنِى أُسارِقُها النظر ، فأسبلتْ ثوبَها متعجِّلَة ، وجابهتْنِى بنظرةٍ زاجرة ، وهى تبتسمُ لى قائلة : خَبِيث !

لم تستغرقْ هذه الحادثةُ إلا لَحَظات ، ولكنّ أثرَها تعمَّق فى

نفسى ، فلم يَبْرَح . وشعرتُ بيقظةٍ تسرى فى أوصالى ، يُذْكِى لهيبَها مجاورةُ الفتاةِ لى ، والتصاقُ جَسَدِها بى .

واقترب موعدُ الإفطار ، فنهضْنا نعودُ إلى داخل الدار ، ورغبتْ « تهانى » فى أن تغسلَ يديها ، وكانت الطسوت والأباريقُ مُعَدَّة ، فطاب لى أن أحملَ لها الإبريق ، وأن أصبَّ منه على يديها ، وأنا أتوسَّم هاتين اليدين البَضَّتين ، تنساب عليهما رَغَوَات الصابون ، وهما تتلوَّيان فى نعومة ولَيان . على حين كانت « تهانى » تعابثُنى فى الفَينة بعد الفينة بما تَرُشُّنِى به من رَذَاذ ، ثم أراها تتدانَى منى بوجهها ، ولا تلبث أن تتراجعَ فى تضاحك ومِرَاح . وفيما نحن كذلك كاد وجهُها يلامس وجهى ، فإذا شَبَح « فتحية » يطالعنى ، وعينُها تنظر إلىّ ، فلاحقنى ارتباك ، وسقطَ الإبريق من يدى ، فاندلق ماؤه على الأرض ، وكاد يصيبُ ثوبَ « تهانى » لولا أنها قَفَزَتْ مرتدَّة ، فوقعتْ عينُها على « فتحية » منصرفةً تحثُّ خُطَاها ، فلوتْ « تهانى » رأسَها إلىّ ، وحَدَجَتْنِى بنظرة حامية ، وهى تقول : يالك من غَرِير !

ثم جذبتْ المِنْشَفَةَ منى ، ومسحتْ يَدَها على عَجَل ، وصَحِبَتْنى ونحنُ فى صمت إلى حجرة الطعام ، وأَذَانُ المغرب تتجاوَبُ به أرجاء الدار .

وشَعَرتُ بأن « تهانى » تقرُص يدى ، وهى تقول :

ما ذا تستحقّ من عقوبة لِقَاء فعلتِك التى فَعلتَ ؟

وأَلْفَيْنَا أهلَ الدار وضِيفانَهـا متحلِّقينَ حولَ المـائدة ، ما خلا « فتحيةَ » وجدَّتَها السيدةَ « هاجر » .

وأخـذتْ « تهانى » مجلسَها بجانبى ، وشرعنا نَطْعَم ، وكانت لا تنفكُّ فى أثناء الأكل تتابع سِرَارَها لى ، تتناول الطاعِمينَ بألوانٍ من النقد والملاحظة فى سخرية واستهزاء ، لا ترحَم من لسانِها أحداً ، حتى جَدَّتَها العجوز . ولم يكن يُغْنيها أن تتحدَّث ، وأن أُولِيَهَا سَمْعا ، وإنمـا كانت تقتضينى أن أُعْلِنَ موافقتى على ملاحظاتها ، ومجاراتى لما تبديه من ألوان الاستهزاء ، فإذا توانيتُ أو بدا علىَّ فتور ، طَفِقَتْ تَغْمِزُنى تارةً وتَقْرُصُنى تارة أخرى ، فَأَعْجَلُ بالإيماء إليها ، أو أبتسم لها ، علامةَ الرضا والإقرار !

على أننى كنتُ فى سريرة نفسى أحسّ بأنى ضائق بهـذا كله ، وأنى لا أستطيع استساغةَ هذا العبث الجرىء ، والتطاول البغيض .

وكثيراً ما خطرتْ « فتحية » ببالى ، فشغلتْنى حيناً عما أنا فيه ، وأشعرتْنى بأن من حقِّها علىَّ أن أسأل عنها ، وأن أتلطفَ بها . بَيْدَ أنى لم أملك القيام بشىء .

وفرغنا من الطعام ، فانصرفْنا إلى البهو ، ننتظر شروع القارئة فى إنشاد بعض الموشَّحات فى التمدُّح بالنبى ، وكانت القارئة متربِّعة على حَشِيَّتِها تحتسى القهوة وتجتذب أنفاس الدُّخان فى غير هوادة ولا رِفق .

واستقبل البهوُ جديداً من وفود الزوّار ، رغبةً فى تشنيف الأسماع بالإنشاد ، ولـكن القارئة ظلت مُـكِبَّةً على قهوتها ، تتناول منها قدحاً بعد قدح ، مسحورةً بدُخانها ، تُشْعِل منه لِفافَةً بعـد لفافة ، و بينها و بين جارتها حديث جَيَّاش موصول .

وطال بنا الإنتظار ، و بدت « تهانى » متململة ضَجِرة ، وهمستْ لى برغبتها فى أن نغادرَ البهوَ معاً ، فاستمهلتُها بعضَ الوقت ، ترصُّداً لفرصة مواتية .

ولاحت الفرصة المنتظَرة ، فانتهزتُها لى وحـدى ، إذ نادتْنى من أقصى البهو إحدى الزائرات ممن أعرِف ، فهُرِعْتُ إليها أستقبل تحيتَها لى ، وتلطُّفَها بى ، وما لبثتُ أن تسللتُ أُسارق الخطا إلى الدِّهليز ، فصادفتُ هنالك « أمَّ خُضَير » ، فأقبلتُ عليها مشبوبَ النفس أسألها :

أين « فتحية » ؟

— لست أدرى أين هى ؟ ربمـا وجدتَها فى حجرة الحاضنة « مَسَرَّات » .

ويَمَّمْتُ الحجرةَ أعدو إلى مكانها المنعزل ، و بلغتُها مبهورَ الأنفاس فألفيتُ الحاضنة « مسرات » على سَجَّادتها مسترخيةً وَسْنَى تَفْسَحُ المجال لِمعدتها ، كى تؤدِّىَ مهمتَها فى هَضْم الطعام ، فهززتُها بقوة وأنا أقول : أين « فتحية » ؟ أين « فتحية » ؟

فانتبهتْ الحاضنةُ مُزْعَجَةً غَضْبىٰ ، تقول :

أهذا جئتَ تُقلق راحتى ؟

— أرجو منكِ أن تخبرينى أين « فتحية » ؟

فتثاءبتْ طويلا ، ثم قالتْ فى صوت متقطِّع :

كانت هنا ، وخرجتْ ، لا أدرى إلى أين ؟

فتركتُ حجرةَ الحاضنة أُهرول ، وهى تشيِّعنى بقولها :

حَسْبِىَ الله ونعمَ الوكيل !

ضاع جهدى فى البحث عن « فتحية » أين تكون ، وكنتُ كلما أخفقتُ فى العثور عليها فى مكان ، توقدتْ رغبتى فى مواصلة البحث وَالِاستقصاء ، وأنا معتزم أَصْدَقَ الاعتزام أنى لا أكاد أراها حتى أَهْوِىَ على يدِها أستغفرُها مما كان ، وأَفْزَعُ بها إلى مَلاذٍ أمين يحمينى مما أعانيه من ألم وضيق .

واحتوانى الدِّهليزُ مرةً ثانية ، ففاجأتنى « تهانى » ثائرةً متنمِّرة ،

وجابهتنى تقول :

أمِنَ الذوق أن تترك ضيفتك وحدَها ؟ أين كنتَ ؟

فأغصّتنِى كلماتُهـا ، ووجدتُنى أنفجر قائلا :

كنتُ أبحث عن « فتحية » .

فرنّتْ ضحكتها عابثةً هوْجاء ، فتابعتُ قولى :

أليستْ هى ضيفتى أيضاً ؟

فلبثتْ تُصوّبُ فِىَّ نظرَها وتُصَعّدُه ، وهى فى وقفتها تتلوّى على نحوٍ أثار بين جوانحى غرائبَ إحساس ، ثم قالتْ فى تُؤَدَةِ المترفّع :

من هى « فتحية » ؟

— إنكِ تعرفينها . . . « فتحية » بنت « محيي الدين افندى » . .

— أوه . . . تلك الفتاة السُّوقية التى تَلْبَسُ الجوربَ مقلوباً ؟

واسترسلتْ فى ضحكاتها العابثة الهوجاء ، فوجدتُنى أقول صارماً عنيفَ اللهجة : كُفِّى يا « تهانى » !

ولـكنها لم تكتفِ ولم تزدجر ، فمضتْ تصبُّ على رأس « فتحية » أوضارَ النعوت والأوصاف .

وكنتُ واقفاً أحدّق فيها ، وخلفَ ضلوعى عاصفةٌ تزلزل كِيانى .

وتركزتْ نظرَتى فى فمها ، فلم أعُدْ أرى مِنْ ذلك الجسد الثعبانىّ إلا هاتين الشفتين العظيمتين تتلعَّبان فى عُنْفٍ وجبروت .

ودار رأسى ، فلم أعُدْ أعى ما أفعل ، ولكنى تبينتُ أنى رفعتُ يدى ، كأنى أريد أن أهْوِىَ بها على غريمتى التى تمادَتْ فى جرأة وتطاول ، فإذا أنا أهجُم عليها ، فأحتويها بين ذراعىّ ، وأندفع فى تقبيل فمها ، كأنى أمزِّقه تمزيقاً .

وأحسستُ بحركةٍ مفاجئة ، فالتفتُّ أستوضح ما جرى ، فألفيتُ «فتحيةَ» واقفةً مع « أم خضير » ، ولم يَعزُبْ عن عينى أن أرى وجهَ « فتحية » بادىَ الِامتقاع ، مصعوقَ النظرات .

وتقدمتْ منا « أم خضير » فى خطوات عابثة ، وكأنها لم تلحَظ شيئاً مما كان ، وهى تجرُّ يدَ « فتحية » جرًّا ، وتقول فى غير مبالاة :

كنتَ تبحثُ عن «فتحية» ، فجئتُكَ بها .

وسَرعانَ ما رأيتُ « فتحية » تدور بوجهها عنى ، وتنفلتُ عَجْلَى ، تُخْفيها مَعاطِفُ الدِّهْليز .

ومكثتُ لحظاتٍ فى ذَهْلةٍ أعْيا بإدراك ما يجرى حولى ، فلما ذهب الرَّوْعُ عنى ، طوَّفْتُ ببصرى ، فلم أجدْ من أحد ، فانطلقتُ فى الدِّهليز

أَنْشُدُ « فتحية » ، ورأيتُ « أم خضير » مقبلةً علىّ ، فسألتُها ملهوفَ النفس : أين « فتحية » ؟

فابتسمتْ ابتسامةً عريضة ، ودَنَتْ منى تقول :

هدِّئْ من ثائرتك . . . لا تُلْقِ بالاً لشىء . . . سأصلح لك الأمر . . . عَوِّلْ عَلَىَّ !

فسدَّدْتُ إليها نظراتى ، أستجلِى منها ما تَعْنِيه ، فأردفَتْ تقول :

اذهبْ إلى حجرتك ، وانتظرْنى هناك !

ووجدتُنى أُذْعِنُ لها ، فأَقْصِدُ إلى حجرتى على الفور .

وضِقْتُ بالانتظار ذرعاً ، وأنا أشعُر بأنى حَبِيس لا أستطيع الفَكاك .

وهَزَّتْ مسامعى خَفَقاتُ أقدام ، وأخذتْ عينى « أمَّ خضير » ، وقد أحاطَتْ يدُها بكَتِفِ « فتحية » ، وما لبثْتُ أن واجهَتْنِى بقولها فى لهجة مَكِينة : « فتحية » لها عندنا مقام كريم . إنها صاحبةُ البيت ، ورضاها أمرٌ لا بدَّ منه . ما لنا وللضيف الدَّخِيل الذى ليس منا ، وليس له فى قلبنا مكان ؟ !

وسكتَتْ قليلا ، ثم دفعتْ « فتحيةَ » نحوى فى لطف ، وهى تقول لى : تقدَّمْ لتصالحها . . .

فما أسرع أن هُرِعْتُ إلى « فتحية » أُمسك بيديها أضغطُهما فى اهتياج ، فأحسستُ بها تَدُسُّ وجهها فى صدرى وهى تَنْشِج ، فطوّقْتُها بذراعىَّ ألاطفها ، فما إن رأتْنا « أمُّ خضير » على هـذه الحال ، حتى خرجت خفيفةَ الخطو ، وأقفلتْ وراءها الباب .

وظَلِلْنا كذلك حيناً حتى أمسكتْ « فتحيةُ » عن النشيج ، وشرعتْ تتطلّع إلىّ ، فتواصلتْ نظراتُنا ، ولمحتُ شفتيها تختلجان ، فما هى إلا أن أَهْوَيتُ على فمها أُوسِعُه من تقبيل !

وكان عناقٌ طويل . . .

١٣

وفى الغَدَاةِ تركتُ فراشى ولَمَّا تَبْلُغِ الساعةُ السادسةَ ، على غيرِ ما تعوَّدْتُ .

وتسلَّلْتُ من البيت أتَّقى أن تقعَ عينُ « فتحيةَ » علىّ .

وأمضيتُ يومى فى المدرسة ، كأنّى نائم أحلُم . . .

وملك نفسى شعورٌ بأنى قد انفسحتْ لى دنيا جديدة بهيجة لم يكن لى بها سالفُ عهد .

ولاحظ عليَّ قرينِي « خيرى » أنى فى حالةٍ تبعثُ على التساؤل والاستخبار ، فقال لى : مالكَ اليومَ يا « سامى » طَلقاً بسّاماً لا تنتهِى عن مَرَح ؟ هل كَسَبْتَ الورقةَ الأولى من وَرَقِ النصيب ؟

فأجبتُه فى نَشْوة : رَبِحْتُ الدنيا كلَّها يا « خيرى » !

فهزَّ كتفيه لى ، ولوَى رأسه عنى .

وترامَى إلى سمع رفيقِنا « الزغبى » هـذا الحِوار ، فدنا منِّى وهو يتفحَّصنى بنظر ثاقب ، ويربِّت كتفى مبتسمَ الثغر ، وقال :

إنى أعرفُ السرَّ فى هذا الانقلاب !

فتلألأتْ على وجهى غبطة ، وجعلتُ أقهقه ، ثم أخذتُ بيده ، وملتُ على أذنه هامساً أقول : أمَا أحببتَ فى حياتك ؟

فسمعتهُ يقول : أوه . لى فى هذا الميدان جولات وجولات !

ومضينا معا يصارحُ كلانا صاحبَه بأقاصيصِ قلبه ، على حينٍ وقف « خيرى » بجوار الحائط ينظرُ إلينا فى تطلُّع واستغراب ، وهو يَقْرِض أظفار يدِه !

وكان شوقى إلى « فتحيةَ » ينمو فى هذا النهارِ ساعةً بعد ساعة ، فلما قَفَلْتُ أصيلا إلى المنزل ، لم يكن لى من همٍّ بادئَ بَدْء إلا أن أسارِعَ إلى السؤال عنها ، فأعلمونى بأنها بارحتْ الدارَ فى الضَّحْوةِ

الباكرة ، فسُرعان ماغاضَتْ بشاشتى ، واغتمَّتْ نفسى ، ومَضَّنِى أسف ، فَيَمَّمْتُ حجرتى ، تذهبُ بى الهواجسُ كلَّ مذهب .

وبعدَ قليل لزمتُ النافذةَ أُرَوِّحُ عن نفسى ، وأَشْغَل ناظرى بالتطلع إلى حديقة الدار . وبينما أنا منسرحُ الفكر فى آفاقٍ شتى لمحتُ طيفين يجوسان خلال الشجر ، فمددتُ عينى أتبيَّنُ : لِمَنِ الطيفانِ ؟ فوضح لى أنهما أخى و « تهانى » يسيرانِ جنباً إلى جنب ، فوجدتُنى مهتمًّا أرقبهما وأتقصَّى حركاتِهما فى دِقَّة ، ثم تركتُ النافذة ، وقصدتُ إلى الحديقةِ أنتبذُ منها مكاناً مستوراً أَرَى منه دون أن تنالَنى العيون .

وكان جليًّا أن أخى بالغُ التلطفِ « بتهانى » يُرَبِّتُ يدها ، ويداعب خدَّها ، ويُسِرُّ إليها بعضَ كلمات تتلقَّاها مَرِحَةً طروبا تُرسل ناعمَ الضحكات .

وألفيتُهما يتجهان إلى الباب ، والمركبةُ هنالك فى انتظارهما ، وماهى إلا أن رأيتُ « إجلال هانم » هابطةً على السلّم تَلْحَق بهما ، فركبوا جميعاً . واعتلى « مدبولى » كُرْسِىَّ السِّياقة يفرقع بسوطه ، فما لبثتْ المركبةُ أن دارتْ عجلاتُها تَطْوِى الطريق .

ورجعتُ أدراجى أستشعرُ انقباضاً ووحشة ، وأسائلُ نفسى :

كيف ساغ « لتهانى » أن ترتحلَ عن الدار ، دون أن تُحيِّيَنى تحيةَ التوديع ؟

وعجبتُ لأخى ، كيف جَدَّ من أمرِه هذا الإقبالُ على « تهانى » وذلك التلطف بها ، وهو الذى كان لا يَبَشُّ لها ولا لجدَّتها ، بل لقد كان ينظر إلى « تهانى » نظرةَ إصْغار ، ولا يُعيرُها أدنَى التفات ؟

وفى صُبْحِ غدى ، لم أَكَدْ آخُذُ مكانى من المركبة قاصداً إلى المدرسة ، حتى مِلْتُ على « مدبولى » أسألُه مداعبا :

إلى أين ذهبتَ بالرَّكْبِ أمسِ ؟

فتضاحك الرجلُ قائلا :

كانت نزهة طيبة ، طُفْنا فيها بالشوارع ، وقَصَدْنا بعضَ المتاجر ...

فقلتُ له : هل اشتريتم شيئاً ؟

— ملأنا المركبةَ بشتى الأشياء .

وخلوتُ بنفسى فى المركبة يستغرقُنى التفكيرُ فى حديثِ السائق ، وفيما كان بين أخى و « تهانى » أثناء طوافهما فى الحديقةِ أمسِ .

١٤

انصرمَ أسبوعان عانيتُ فيهما أشدَّ القَلَق والاضطراب ، وعلى الرغم من شوقى المشبوبِ للقاء « فتحية » لم تطوِّعْ لى نفسى أن أزورَها فى دارها . . .

ويا طالما تَمَثَّلَ لى أن ما كان بيننا فى اليوم المعهودِ قد أساءَ إليها ، وأنها واجدةٌ علىّ ، مستريبةٌ بى ، نافرةٌ منى .

وكنتُ عصرَ يوم فى طريقى إلى البهو ، عائداً من المدرسة ، فصادفَتْنِى « فتحيةُ » بالباب ، فَسَرَتْ فى كِيَانِى رَجْفَة ، ولكنى تماسكتُ ، وتدانيتُ منها أحيِّيها وأنا صامت ، وسرتُ معها خطوات ، ثم قلت : كِدْتُ أيأس من عودتِك يا « فتحية » . . .

فأجابَتْنِى فى لهجة مألوفة : كانت عندنا شواغل .

ومضيتُ بها إلى حجرتى ، وبين جَنْبَىَّ يَشُبُّ ضِرام الشَّغَف والحنين ، والدنيا من حولى تتألَّق وتزدهر ، وتَشِيعُ فيها نَشْطَةُ الحياة .

وما إن احتوتْنا الحجرة ، حتى التفتُّ إليها متودِّداً عَطُوفَ اللهجة ، أقول : أكنتِ ببابِ البهوِ تنتظرينَ مَقْدَمى ؟

فَسَمَتْ إلىّ بعينين طَلَّاعتين قرأتُ فى نظراتِهما أوضَحَ جواب .

وما أسرع أن ملكتُها بين ذراعىَّ ، وكأنى قد ملكتُ الدنيا جمعاء .

وامتدتْ إقامةُ « فتحية » فى البيتِ أسابيع ، وطاب لى مُقامُها . وتوشجتْ بينى و بينها أواصرُ حبٍّ مكين ، ووجدتُنى عظيمَ الثقةِ بنفسى ، قادراً على أمرى ، ناشطاً للعمل ، أستذكر درسى غيرَ وان ولا مَلول ، وهى عَنْ كَثَبٍ منى تواصل التطريز . وشعرتُ بأنى مَعْنِيٌّ بملبَسى وزينتى ، حريصٌ على تنظيم حُجْرتى ، أستعينُ « فتحيةَ » فى تحقيقِ ما أصبو إليه من أناقة ونظافة وتنسيق .

وقضيتُ فى صحبتها هذه الفترةَ من أيامى هانِئَ النفس ، بارئَ البال من شوائبِ الحياة ، يتطلَّع كلانا إلى الغدِ المرجوِّ بعين الثقة وَالِاطمئنان ، ويُحِسُّ كلانا أن عيشَه قدأصبح موصولًا بعيش صاحبه ، بيننا تلاؤم واندماج ، لا فراقَ بعدَه ولا انفصام .

وتكررتْ هذه الفتراتُ الممدودة التى تَقْضِيها « فتحيةُ » معنا فى الدار ، ونحن نستمرئُ نَشْوَةَ الصحبة ، ومُتْعَةَ اللقاء ، لا حسابَ ولا ارتيابَ .

وفى أثناء ذلك كله ، لم يَجْرِ لسانى باسمِ « تهانى » ، وكذلك

« فتحية » لم تتحدَّثْ إلىّ فى شأنها أىّ حديث .

ومما ساعدَ على ذلك أن « تهانى » لم تطأ قدمُها أرضَ البيت ، منذ ذلك اليومِ الذى خرجتْ فيه هى وجدَّتُها بالمركبة يصحبُهما أخى .

على أنى عجبتُ لهذا الإقطاع كيف يكون ، ولم أقفْ له على كُنْهٍ ، وإن كنتُ قد طِبْتُ به نفسا ، وَوَدِدْتُ أن تَظَلَّ « تهانى » خلفَ ستائر النسيان .

ولكن ما هى إلا أسابيع ، حتى جعل يَهُزُّ سمعى طنينُ التهامُس بين الخدم ، فكنتُ أتبيَّنُ فى أحاديثهم الغامضةِ اسمَ أخى مقروناً باسم « تهانى » .

وكانت « أمُّ خُضَير » حين تَقْدَم إلى حجرتى لتعالجَ تنظيفها وترتيبها ، لا تفتأ تدور حولى بأطرافٍ من الكلام فى شأن « تهانى » وأخى ، تثير بها فضولى ، ولا تَشْفِى غليلى ، فأراها حينا تَغْمِز وتَرْمِز ، وحينا تقتضب الأنباء والأقاصيص ، وتارةً تتساءل عابثة : لماذا انقطعتْ « تهانى » عن زيارة البيت كما كانتْ تفعل من قبل ؟

وذاتَ ليلة ساقَتْنِى خُطَاى إلى حجرة الحاضنة « مَسَرَّات » فَلَقِيتُ معها زوجَ أخى مقبلةً عليها تتحدَّث فى حَمِيَّةٍ واهتمام ، فلما رأتنى زوجُ أخى أمسكتْ عن الكلام عامدة ، ولكنّ الحاضنةَ لم

تتمالك أن تسترسلَ فى زمجرة وحِدَّة ، وأن تستنزلَ لعناتِ السماء على نفوسٍ تملؤها الخيانةُ والغدر ، بها تَتقوَّضُ دعائمُ البيوت ، وعلى يَدِها يَتمُّ خرابُ الأُسَر .

ولم يَخْفَ عنى أن زوج أخى تكفكف أنداءً من دموع ، وأن مُحيَّاها يرتسم عليه طابَعُ الأسَى الدفين ، فعزَّ على نفسى ما هى فيه ، ورأيتُنى أقتربُ من مكانها ، فآخذُ يدها وأرفعُها إلى فمى أطبَع عليها قبلة رفيقة ، وأنا أُهمهم :

أنتِ أكرمُ من أن يعاملَكِ أخى هذه المعاملة !

فمسحتْ على رأسى ، وقبلتْ جبينى فى حنان .

ولُوحظ أن أخى يُكْثِرُ من التغيُّب عن الدار ، فإن اتفق لى أن أراه ، لمحتُ منه حالا غيرَ ما كنت أعهَد ، إذ كان يحاول أن يبدوَ فى مظهر من الأناقة والرشاقة والمِراح ، وهو الذى كان مثلا واضحاً للتوقُّر والتزمُّت وَالِاحتشام .

إلا أن هذا المظهرَ الطارئَ لم يكن بقادرٍ على أن يستُر الشيخوخة فى موكبِها الجارف ، فقد ارتسمتْ على وجه أخى غضون يَزْحَم بعضُها بعضا ، وكَسَتْه مَسْحَةً من الشحوب تنبىء عن اضمحلالِ قواه ، وإن كانت سنُّه لا تؤهِّله لتلك الشيخوخة العَجْلَى .

واعتكفتْ زوجُ أخى فى حجرتها ، وألزمتْ عينيها نظارةً زرقاء ، ولم تكن تَأْنَسُ إلا بلقاء السيدة « هاجر »، فهى تطيل الجلوسَ إليها، ويَطِيبُ لها أن تتحدثَ معها ، وأن تستمعَ لما تُفيضُ فيه جليستُها من حديث هادئ وديع يبعَثُ الطمأنينة والرضا .

وفى الحين بعد الحينِ تخلو « أمُّ خُضَيْر » بزوج أخى ، تنفُض بين يديها جَعْبَةً من الأخبار فى هَمْسٍ وَسِرَار .

وتَلَبَّدَ فى جَوِّ الدار وجوم ، فكأننا كنا نَحْيَا فى مَأْتَمٍ صامتٍ لا تنقضِى أيامُه ولياليه .

وتواردتْ الأيام ، تكشِف الستارَ شيئاً فشيئاً عما تَمَّ بين أخى و« تهانى » من زواج ، ولكن هذا النبأ على خَطَره لم يكن يجرؤ على أن يَجْهَرَ به لسان !

١٥

لبثتُ أربعةَ أشهر ، تتوثَّقُ فيها علاقتى « بفتحية » . وحان يوم تجلَّى لى فيه أنها تغالِبُ طارئاً من الإعياء ، فأخذ وجهُها يبدو عليه الإمتقاع ، وجعلت تَجْنَحُ إلى الركود ، ويُسْرِعُ إليها الغَشَيان . . . وكثيراً ما رأيتُها شاردةَ النظرات ، غافلةً عن مُناقَلَتِى الحديثَ . وازداد على مَرِّ الأيام امتقاعُها وتثاقُلُها حتى انطلق لسانُها بالتأوُّه على كُرْه ، ولم تَعُدْ تطيق صبراً على ما بها من آلام .

وفى ظَهيرة يوم ، وأنا بالمدرسة مع « الزغبى » فى فترة الراحة ، وقفنا نتجاذَبُ أحاديثَ الشباب . فانبرى « الزغبى » يتحدَّث عن الحبّ وأحداثه ومُعَقِّباته ، وجعلتُ أستزيدُه من الإفاضة فى هذه الشئون ، وأستوضحُه ما غَمَضَ من الدقائق . وبغتةً لاح فى مخيِّلَتِى طَيْفُ « فتحية » فى مظهرِها الجديد ، فبدأتُ أَكْتَنِهُ ما بها من إعياء ، وما تعانيه من انقلاب . ودهانى قَلَق ، ثم عرانى سُهُوم ، ولكنى وجدتُنى قد استَخَفَّنِى فرح مفاجىء ، فأقبلتُ على « الزغبى » أُقَبِّلُه طَرُوباً مهتاجَ النفس .

ولما كانتْ أوْبَتِي إلى المنزل بعـدَ العصر ، ألفيتُ « فتحية » قابعةً فى حجرتى ترتقب مَقْدَمِى ، فوقفتُ حِيَالَها أتأملها ، وقلبى يكاد يَطْفِر من بين الجوانح ، فَسَمَتْ إلىّ بعينها كأنها تَعْجَبُ مما ترى منى ، وتسأل عن سِرِّ وقفتى وتأملى ، فأمسكتُ بيدها ألاطفها ، وهمستُ فى أذنها قائلاً :

أَغَرِيبٌ عنكِ أنا يا « فتحية » حتى تُخْفِى عنِّى هذا الأمر ؟

فاعتمدتْ برأسها على كتفى ، وقد أسبلتْ جفنيها دون أن تُجِيبَ .

واحتضنتُها مشغوفَ الفؤاد أقول :

ما أسعدَنِى بهذه البُشْرَى ياحبيبتى !

وسَرَتْ فى كيانى شجاعة واقتدار ، والتمعتْ عينى التماعَةَ التأهُّب والتدبير ، ولاحظتْ عَلَىَّ « فتحيةُ » ما أنا فيـه ، فنظرتْ إلىّ نظرةَ استخبار ، فقلتُ : ستعلمين كلَّ شىء !

واندفعتُ مُدبراً عن الحجرة ، قاصداً حجرةَ زوج أخى « مَوَدَّةَ هانم » فصادفتُها على المُتَّكَإِ تجتذب أنفاسَ لِفافتها ، فارتميتُ على صدرها أُوسِعُها عناقاً وتقبيلاً ، فابتسمتْ لى وهى تقول :

جئتَ تطلبُ شيئاً لا مَحَالةَ .

— شيئاً عظيماً فيه سعادتى جمعاء !

فرفعتْ نَظَّارتهــا الزرقاء عن عينيها شيئاً ، وحدَّقت فى وجهى متعجِّبة ، وقالت : أىّ شىء يا « سامى » ؟

وفى غيرِ تردُّدٍ ألقيتُ جوابى قائلاً :

إننى أحبّ « فتحية » وأريد أن أتزوّجها . . .

فَعَظُمَتْ دهشتُها ، وقرأتُ فى عينيها الحيرةَ البالغــة ، وجعلتْ تبعث من بين شفتيها همهمةً لم أستَبِنْ منها كلاماً . ثم قالت لى :

نفــكِّر فى هذا الأمر يا « سامى » .

فلم أبرحْ موقفى منها ، وتشبثتُ بها أقولُ مُلِحًّا :

فِيمَ التفــكير ؟ ليتَكِ تعلمين مبلغَ حُبِّى إياها !

وطَفِقْتُ أُفْضِى إليها بما بينى و بين « فتحية » من هَوًى مشبوب، وأسرُدُ لها كيف نشأتْ هــذه العلاقة ، وكيف تطورتْ ، وما زلتُ أُدِيرُ الحديث حتى أَمطْتُ لهــا اللثامَ عن « الحادثِ السعيد » الذى تنطوِى عليه الفتاة !

فما أسرع أن ألفيتُ زوجَ أخى مأخوذةً متجهِّمةً تعالج أن تَنْبِس، فيَعْيَا لسانُها بالــكلام . ولم تملِكْ إلا أن تُنَــكِّسَ رأسَها وهى تقول :

لا بُدَّ أن أتحدثَ إلى أخيك فى هذا الأمر !

فرنوتُ إليها وقتاً ، ثم صحتُ بها محتدًّا :

فليتركْنا أخى وشأنَنا . . . إنه فى شُغُلٍ عنا ، لا يَعْنيه شىء من أمرِنا !

وبعدَ أيامٍ رأيتُ أخى فى المنزل ، فتوقعتُ أن يدورَ بينه وبين زوجـه حديثٌ فى شأنى مع « فتحية » ، واستشعرتُ قلقاً ورَهْبَة ، وجعلتُ أجُولُ فى الدار لا أجدُ لى من قرار ، وأنا أتنسَّمُ ما يجرى فى حجرة أخى وزوجِه . وبينما أنا كذلك روَّعَنِى صوتُه صائحاً فى البهو يقول : ما هـذه المَفاسِد التى تقعُ فى بيتى ؟ أنا لا أقبَلُ فى البيت مُجانَبَةَ الصون والعفاف ، فلترحل الفتاة وَجدَّتُها على الفور !

فانبسطتْ على عينى غِشاوَة ، وأدركنى شِبْه إغماء ، فتهالكتُ على مقعد كان منى غيرَ بعيد ، وتناهَى إلى سمعى هَرْج ومَرْج : أخلاط من أصوات تعلو وتهبط ، وخَفَقَات أقدام تَغْدُو وترُوح .

وخُيِّلَ إلىَّ أنى أسمعُ صوتَ « فتحية » خلالَ هـذه الجلبَةِ ، فَشَبَّتْ النار فى قلبى ، ونهضتُ متحفزاً مستوفزاً أعدو ، وواصلتُ عَدْوِى ، حتى قاربتُ البَهْوَ فى غير وَعْى ، فرأيتُ أخى ماثلا متنفخا يهتزُّ شارباه ، وقد التفتْ به لُمَّةٌ من الخـدم والأتباع ، وبين يديه خادِمُه الخـاصُّ « سعد الله » فارعَ القامة ، صُلْبَ العود ، عَريضَ الألواح . فلما لمحنى أخى تقدَّم خطوات ، وهو يُلوِّحُ بعصاه مُغْضباً

مزمجراً يقول : أأنتَ فعلتَ هـذا ؟ أأنتَ يكون منك هـذا الإثم ؟ لَتَذُوقَنَّ وَبالَ أمرِكَ !

فَدَلَفْتُ إليه ذليلَ الخطو ، مطأطئ الرأس ، وانحنيتُ عن كَثَب من يده ، وأنا أقول ضارعَ اللهجة : « فتحية » لا ذنبَ لها ، أنا المسئولُ عما كان . . . اغْفِرْلى زَلَّتِى !

فاعتدل أخى فى وقفته ، واتـكأ على عصاه ، وهو يقول لخادمه « سعد الله » : عليكَ به ، فأَدخلْه حجرته ، ولا تَدَعْه يفارقها ، حتى أُنْهِىَ إليك أمرى .

فما هى إلا أن وجدتُنى قد أحدقَتْ بى ذراعان عنيفتان تسوقانِنى ، فتعاصيتُ وتأَبَّيْتُ ، أتصايَحُ وأحاول التفلُّت ، ولـكنَّ الخادمَ لم يَدَعْ لى طاقةً بالخلاص ، وإذا أنا قد خارَتْ قواى ، وأظلمتْ الدنيا أمام عينى ، ووجدتُنِى بعد حين فى حجرتى ، على وِسادى ، أبْـكِى وأبكى ..

مضَتْ أيام كنتُ فيها كالمحموم ، لا أرِيمُ فراشى ، ومعى زوجُ أخى ، تتعهدُنى وتتلطفُ بى ، ولا تقصِّرُ فى تهوين ما كان علىَّ .

وكلما سألتُها عن « فتحية » :

أين ذهبتْ ؟ وإلى أى مصير سِيقَتْ ؟ ربَّتَتْ كَتِفى وهى تقول :

لا تكن مهموماً ، ليهدأْ بالك ، لـكلِّ شىء دواء !

وَأَبْلَلْتُ من وَعْكَتِي ، فتركتُ مضجَعى ، وما زال شَبَحُ « فتحية » يُرَاوِدُنِي ، فيُفْعِمُ بالقلق نفسى ، ولم يَشْفِ غليلى ما حدثتنى به زوجُ أخى فى هذا الشأن ، فجعلتُ أحاور « أُمَّ خُضَيْر » لأستخلصَ منها حقيقةَ ماجرى ، فصارَحَتْنِي بأن أخى عَمِلَ على إرْحَالِ « فتحية » وَجَدَّتِهَا إلى إحدى الضِّيَاع ، وأن « فتحيةَ » باتتْ هنالك زوجاً لشيخ الخفر !

فنزل علىّ هذا النبأُ نزولَ الصاعقة ، ووجدتُنى ثائراً أتسخَّط ، حاقداً أغْلِي ، وبنيتُ عزمى على أنى لا بدَّ ناقضٌ ما أبرمَ أخِي من عسف وعُدْوَان ، وأنه لا قوةَ تَحُولُ بينى وبين « فتحية » آخرَ الأبد .

على أنى كنتُ لا أكادُ أُهُمُّ بإنفاذ خُطة ، أو إعمالِ تدبير ، حتى تعتاقنِي العَقَبات ، ويتعاظمَنِي الأمر ، وأَجِدَنى فى شِبَاكٍ لا أعرف لى منها مَحِيصاً .

وتعاقبَتِ الأيام علىّ ، فشاعتْ فى أوصالى بلادة واسترخاء ، وفقدتُ كل همة ونشاط . أصبحتُ أَمَلُّ درسى ، ولم أَعُدْ أفتحُ من كتاب ، بل لقد ضِقْتُ ذَرعاً بنفسى وبمن حولى من الناس جميعاً .

وكان طيفُ « فتحيةَ » يُحَوِّمُ فى مخيِّلتى يسائلنى :

ماذا صنعتُ من أجلِها ؟

فتنطوى جوانحى على حَسْرَةٍ واغتمام ، وأستشعرُ احتقاراً لنفسى ، وإزراء بما قارَفْتُ من آثام . . .

وكنتُ فى غالبِ أمرى إذا أَوَيْتُ إلى حجرتى حاضَرَتْنِى ذِكْرَيَات حُلْوَة تتراءى لى فيها « فتحية » جالسةً قُبالَتِى تطرِّز ، فأتملَّى وجهَها الوسيم الوديع ، أو ذاهبةً آيبةً تتعهَّدُنى وتُعْنَى بخاصَّة شأنى ، أو متحدثةً إلىّ فى مستقبلنا المرجوِّ بصوتها الرفيق . فأسارعُ إلى نفسى أتساءل محزوناً محسوراً :

ترَى كيف تعيشُ « فتحيةُ » الآنَ فى زوايا الريف ؟ وما موقفُها إزاء ما أُرْغِمَتْ عليه من زواج بَغِيض ؟ لا مِرْيَةَ فى أنها تُعانِى ضروباً من المهانة والإذلال ، وتُكابد ألواناً من الشِّقْوة والبأساء .

وإذا أنا تضطرم نفسى هَمًّا وأسًى ، وَيَحْضُرُنِى شَبَحُ أخى فى وقفته الصُّلبة المُجَنَّحَة ، وفى يمينه عصاه يُلَوِّحُ بها فى وجهى ، فأَعْجَبُ كيف جَبُنْتُ حِيالَه حتى فَرَضَ عَلَىَّ ما فرض ، وأَنْفَذَ ما أنفذ ؟ أما كان حَرِيًّا بى أن أنتزعَ العصا من يدِه ، وأن أَهْوِىَ بها فأحطِّمَها على رأسِه ؟

وتعرونى نَوْبَةٌ أَفقِدُ فيها رشدى ، فيعلو صوتى بِشَتْم وسِباب ، وأنهالُ على نفسى بِجُمْعِ يدى ضرباً ولكما ، وأظلُّ كذلك مهتاجاً

حتى أسقطَ على سريرى كالجدارِ يتهاوَى . فإذا نهضتُ عندَ الصباح أزايلُ فراشى ، وجدتُ الوِسادَ مُخضَّلاً بالدموع .

ولما عُدتُ إلى المدرسة لم تَخْفَ حالتى على رفيقىَّ « الزغبى » و « خيرى » ، فأقبلا علىَّ يتعرفان خَبيئةَ أمرى ، ويستجليان مكنونَ سِرّى، فأجبتهما : أريد أن أَخْلُصَ من هذه الدنيا ... أريد أن أنتحرَ .

فوجدتُ « خيرى » يَفْغَرُ فاه مرتاعاً ، ويرتدُّ خطوات ، ولكن « الزغبى » جعل يتلطَّفُ بى ، ويأخذُ بيدى ، وهو يقول : ماعليكَ من بأس ، هَدِّئْ من رَوْعِكَ ، ماذا فى الأمر ؟ أُصْدُقْنِى .

فَسِرْتُ معه خافضَ الرأس صامتاً ، أحاولُ أن أستبقىَ فى سَرِيرَتى ما يَشْغَلُنِى، ولكنى ما عَتَمْتُ أن ألفيتُنى أنفجرُ نافضاً دَخِيلةَ نفسى، مُفْضِياً بكل ما أقاسيه من متاعبَ وهموم . وختمتُ حديثى بقولى :

أبعدَ هذا تحسَبُ أن خيراً لى أن أعيشَ ؟ أليس الِانتحارُ أولى بى؟

فتضاحك « الزغبىّ » وهو يَضَعُ يده على مَنْكِبى، وقال :

ما زلتَ طفلا يا « سامى » لا خِبْرَةَ لك بالحياة . إن ما جَرَى لك أهونُ من أن يُحْسَبَ له حساب . سوف تنسى ما كان بينك و بين فتاتِك ، وسوف تقعُ فى شِباكِ حبٍّ جديد .

فصحتُ على الفور : معاذَ الله أن أخونَ لها عهداً !

١٦

ما شأنُ « تهانى » بى ؟

ألَا بُعْدًا لتلك النزَعات التى تجعلنى أُدْمِنُ التفكيرَ فى تلك الإنسانة العَتِيَّةِ اللعوب !

ما لهذه القُبلةِ التى أذاقَتْنِى إياها منذُ أشهرٍ خَلَتْ تعاوِدُنِى ذكراها ، فتثيرُ بين جوانحى رغبةً عارمة جارمَة ؟

ما لهذهِ الإنسانة لا يتمثَّلُ لى طيفُها إلا جسداً غضّا بضّا ، تتموَّج عليه شُفوف حريرية ناعمة زاهية ؟

أنا من هـذه الذكريات والأَخْيِلَةِ فى عذاب موصول ، فلا أجدُ أمامى إلا رأسَ أخى أصبُّ عليه سَوْطَ النقمة والسُّخْط .

وساعةً وأنا فى المدرسة يزدحمُ خاطرى بتلك المشاهِدِ والتصوُّرات ، أخذتُ بيد « الزغبى » أشـدُّ عليها قائلا :

كيف حالُكَ مع « الحاجَّةِ فاطمة » ؟

فَبُهِتَ « الزغبى » وحدَّق فىّ ، فقلتُ له :

لقد حدَّثْتَنِى عما تلقاه فى بيتها من مُتَع . ألم تعاودْ زيارةَ البيت ؟

فانبسطتْ أساريره ، وتبسَّم ضاحكاً يقول :

وهل أستطيع عنه سُلُوّا ؟

ومال على أذنى هامساً يقول : إذا شئتَ ذهبنا العَشِيَّةَ معا .

فضغطتُ يدَه ، وقلتُ : موافِق .

وأقبلَ « خيرى » فى هذه اللحظة ، فقال له « الزغبى » :

ستكونُ معنا . . . استَعِدَّ لقضاء سهرة ممتعة .

فسأله « خيرى » : أينَ ؟

فأجاب « الزغبى » : عندَ « الحاجة فاطمة » . . .

فأجفلَ « خيرى » وهو يَقْرِضُ أظفارَه ، ويقول :

أبِى . . . أبِى ، لو عَلِمَ لكانت الطامَّةُ الكبرى .

فقلتُ « للزغبى » : لِنَتْرُكْ « خيرى » حرًّا فى تصرفه . . .

فقال « الزغبى » : أفنتركُه طفلًا حتى يَشِيبَ ؟

ثم التفتَ إلى « خيرى » وصاح به : قوْلٌ فَصْل ، ستكونُ معنا . . .

لا تخشَ شيئاً من أبيك ، لن تجدَه هناك !

ولما جَنَّ الليل ، احتوَتْنا حانَة وَضِيعة فى حيٍّ « باب الشعرية »

فطلب لنا « الزغبى » شراباً أسودَ لاذعاً كريهَ المَذاق ، ما كدتُ

أُصِيبُ منه جُرْعة ، حتى اندلعتْ النار فى أحشائى ، فأدرك « الزغبى »

ما بى ، فَلَكَزَنى وهو يقول :

تشجَّعْ ، وكن بطلا ، وافعلْ مثلَ ما أفعل .

وتناول كأسَه ، فصبَّ منها فى فمه جُرْعة وافية ، ثم انطلق ضاحكاً يَزْهُو ، فتناولتُ كأسى ، وصنعتُ كما صنع ، وكنتُ أحسُّ بادئ بدء شيئاً من التهيُّب والتردُّد ، فأنا حِيالَ مغامرة مجهولة لا أدرِى لها عُقْبىٰ ، ولكنى ما لبثتُ أن تطاير عنى شعورُ الخوف والإحجام ، وجعلتْ تسرى فى أوصالى ساريةٌ من الجرأة والطلاقة وَالِاندفاع .

أما « خيرى » فقد أمسك عن الشراب ، وَحَرُنَ لا تَلِينُ له قَنَاة ، وكان وجهُه كاسفاً ، وجبينُه يتفصَّدُ عرقا ، فهَزِئْنا به ، وتركناه يَقْرِض أظفاره ، وهو فى حالة زَرِيَّةٍ من التخاذُل وَالِارتباك .

وفَصَلْنَا عن الحانة ، فقادَنا « الزغبىُّ » يخترقُ بنا مَلَاوِىَ الدروب والحارات ، وهو آخذٌ بيدِ « خيرى » يجرُّه جرّا .

وفى أثناء مسيرنا كان « الزغبى » يُطْنِبُ فى الحديث عن « الحاجّة فاطمة » ويتفنَّن فى وصف دارها ذاتِ الأسرار . وما زال يحدِّثنا حتى بلغ بنا بيتاً عتيقاً بابُه ضَخْم فَسِيحُ الجوانب ، فوقف « الزغبىّ » عندَه ، وأومأ إلينا أن نلتزمَ الصمت ، وتقدم يَدُقُّ البابَ

على نحو خاصّ ، فانفتح طاق بدا فيه وَجْهٌ لم نتبينْ منه إلاصوتاً أجشّ يقول : مَنِ الطارق ؟

فأجاب « الزغبى » خافتَ الصوت : أنا « الزغبى » .

فلبِثَ الوجهُ لحظات ، كأنما يتثبّت ويستوثق ، ثم توارَى عن الطاق .

وسَمِعْنا صَرِيرَ الباب وهو يتزحزح لِيَفْسَحَ لنا فُرْجَةً صغيرة ننفُذُ منها فى محاذَرَةٍ واحتراس ، وإذا بنا فى فِناءٍ تَمُوجُ فيه الظلمات ، وأمامنا ذُبالَةُ شمعة يحملها شَبَح يتقدمنا ، ونحن فى أثَرِه نخطو صامتين . . .

وجعلنا نتخبَّط في دهاليزَ ، ونتنقَّلَ على دَرَج ، ومال « خيرى » على أذنى يهمِسُ : ألا تخشَى أن يقتلونا ؟

فأجبتُه مؤكِّدا : لستُ أخشَى شيئاً !

وتهادَتْ إلى أسماعنا أنغامُ غِناء ، ونَقَرات طبل ، وكلما أمعَنَّا فى السير ، تجلَّت الأنغام وتعالت النَّقَرات . وما لبثنا أن وضحتْ لنا ضجة رَنَّتْ فيها ضحكات نساء ، فأحسستُ نشوةً تمتلكنى .

وبغتةً فَطَنْتُ إلى أن ذُبالةَ الشمعة قد اختفتْ ، وما هى إلا أن

استقبلتْنا قاعة رَحْبَة شَحَّ فيها الضوء ، فأضفَى عليها غِلالةً من الغموض والخفاء .

وأخذتْ عينى جمعاً من النساء فى ثياب كاشفة ، وأوضاع متبذِّلة ، يُحيط بهنَّ رجال يتطوَّحون ويترنَّحون ، وهم يعابثون النساء فى عربدة وصَخَب ، ومن حولهم يُدَوِّى قَرْع الطبول ، وشَدْوُ الألحان .

وحانت منى التفاتة إلى « خيرى » فلمحتُه يدير بصره يَمْنَة ويَسْرة وعلى فمه ابتسامة بلهاء ، وانحنى « الزغبى » علينا يقول :

تعالَيا أُعَرِّفْكُمَا « بالحاجَّة فاطمة » .

ومضَى بنا إلى ركن فى القاعة ، تبينتُ فيه امرأة بادِنَةً ، تقدمتْ بها السن ، مُتَلَفِّعَةً بخِمار ناصع البياض ، وهى تجلس جِلسةً رزينةً محتشمة ، على أريكة وَثِيرَةِ الحشايا ، وبين يديها « نارجيلة » تجتذبُ أنفاسَها فى هِينَةٍ ورِفْق ، ومِنْ مِعْصَمِها تتدلَّى سُبْحَة طويلة ذاتُ حبَّاتٍ غِلاظ .

ووجدتُنى أتدانَى من مجلسها أحييهـا فى أدب ، فمسحتْ على رأسى تقول : ماشاء . . . ما شاء الله . . .

ثم ما عتمتْ أن صاحتْ بالخادم مجلجلةَ الصوت :

انظُرْ ياولد ما ذا يطلبُ ضيوفُنا « البـكوات » . . .

وأخذْنا مجالسنا عن كَثَبٍ منهـا ، فتصدَّى « الزغبى » للخادم يتخيَّر لنا ما نشرب ، وأقبلتْ علينا « الحاجة فاطمة » تتحدَّث إلينا فى مختلف الشئون ، حتى إنها خَصَّتْ حياتَنا المدرسيةَ ببعض الحديث ، ولم تنسَ أن تزوِّدَنا بالنصائح والوصايا ، تحثُّنا على الاجتهادِ فى التحصيل .

وعَجِلَ الخادمُ إلينا بما طلب « الزغبىّ » من الشراب ، ولم يكنْ بينه و بين شراب الحانة كبيرُ اختلاف ، فكَرَعَ « الزغبىّ » من كأسِه ، وحَذَوْتُ حَذْوَه . وكانت « الحاجة فاطمة » تَلْحَظُنا بعينٍ يَقظَى ، فانثنتْ على « خيرى » تسأله : لماذا لم تَشْرَبْ يا بُنَىَّ ؟

فطفِقَ يفرُكُ يديه ، وهو يغمغم ويتضاحك ، فأخذتْ كأسَه ، وقرَّبتْه من يدِهِ ، قائلة له : إنه شراب مفيد للصحة .

فتناول الكأسَ منها ، وما لبثَ أن رفعَها إلى فمه .

وتابعتْ « الحاجة فاطمة » حديثَها إلينا ، بيد أنها حَلَّقتْ بالحديث فى آفاق جديدة متطرفة ، فراحت تقصُّ علينا أشتاتاً من الأضاحيك والفُكاهات والنِّكات . وهى فى الفَيْنَة بعد الفينة تَميلُ على طَرَفِ أريكتِها فتُدْلِى يدها إلى زجاجةٍ تحتَ الأريكة تملأُ منها كأساً ، وسرعان ما ترفعُ الكأسَ إلى فمها فى مساترة واستخفاء .

وندّتْ من « خيرى » ضحكةٌ رنّانة ، فالتفتُّ إليـه ، فوقع بصرى على كأسِه فارغة ، وإذا هو يشرئبّ إلى الخادم ، طالباً إليـه كأساً ثانية !

وقَدِمَ على « الحاجة فاطمة » ثلاثةُ شُـبّان يتخطّرون فى أناقة وزهو ، فاستقبلتْهم تحييهم أحسنَ تحيـة ، وترحّب بمقْدَمِهم أجملَ ترحيب . فرأيتُ « الزغبىّ » يهيبُ بنا أن ننهضَ ، وفيما نحن نتبعُه مدبرِين عن مجلِس « الحاجّة فاطمة » سمعتُها تَصِيحُ بالخادِم مجلجلةَ الصوت : انظر يا ولد ماذا يطلبُ ضيوفُنا « البـكوات » ؟

وسرعان ما انتظمتْنا حَلْقةٌ من نساء ورجال ، فبرزتْ لنا من الجمْع ثلاثُ نسوة تقاسَمْنَنا بينهن ، فانبريتُ أعُبُّ من الشراب عبّا ، وألفيتُنى جموحَ الحركة ، طَلْقَ اللسان ، أشعرُ بنزعة المغامرةِ تثورُ ثائرتها فى دمى لا خشيةَ ثمّةَ ولا استنكاف .

وتواردتْ المشاهدُ لا أضْبِطُ معها وَعْيِى ، ولا أملكُ زمام إرادتى ، فـكأنما قد طوانى تيّار عاصف من أصوات وحركات .

ولستُ أنسى أنى لمحْتُ «خيرى» على رأسه طُرطور ، وقد لَفَّ خاصرتَه بِنطاقٍ حريرىّ ، وشرع يرْقُص ، على حينِ أحْدقَ به الجمْعُ يغنون ويصفّقون .

وكنتُ أحياناً يَدْهَمُنِي فتور ، فتغمرُنى غاشيةٌ من الظلمة والصمت أُخْلِدُ فيهـا إلى غيبوبة ، ثم إذا أنا قد استيقظتُ فجأة على هَيْجَةٍ من تصايح وغناء وإيقاع ، فلا ألبثُ أن أخوضَ مع الجمع غِمَارَ العربدة والضوضاء .

ومن عجيبِ أمرى أنى كنتُ كلما تطلعتُ إلى وجه الغانيـة التى تجاورُنى ، رأيتُنِي أتمثلُ وجهَ « تهانى » بَسَّاماً يُغْرِينِي به ، فأجدُنى قد انهلتُ عليها أُوسِعُها ضَمًّا وتقبيلا .

وتوالتْ الضجة ، واشتدَّ على رأسى وَقْعُها ، فلم أَعُدْ أستطيع تمييزَ شىء مما يجرِى حولى . وانتبهتُ إلى أنى أترجَّحُ فى مركبة تُكَرْكِرُ ، وخُيِّلَ إلىّ أنى سمعتُ « الزغبىَّ » يهزُّنِى قائلا :

أُصْحُ يا « سامى » . . . دنوتَ من البيتِ .

وأحسستُ بعد قليل بذراعين تحملاننى ، فتصعَدان بى فى الدَّرَج ، وكأنى أسمعُ صوتَ « مدبولى » يقول : هل أنتَ أحسنُ حالا ؟

وقضيتُها ليلةً ثَقُلَتْ عَلَىَّ وطأتُها ، وفزَّعتْنِي أحلامُها ، إذ كان يتراءى لى أنى أشتبكُ فى مَعْرَكةٍ حامية بين أخى تارةً وشيخِ الخفر تارةً أخرى !

١٧

لذَّ لى هـذا اللونُ من حياة العبث والهوى ، ولم أَعُدْ أكتفى بالاختلاف إلى منزل « الحاجة فاطمة » وحدَه ، فقد عرفتُ الطريقَ إلى أشباهٍ له ونظائر ، حتى أصبح لى فى ذلك الميدان مكان مرموق ، وكأنى آليتُ على نفسى ألا أعودَ إلى البيت ليلةً غيرَ مخمور .

وازداد تخلُّفى عن المدرسة ، حتى أصبحتْ أيام حضورى تَعْدِلُ أيامَ مَغِيبى أو تقلُّ عنها عددا .

واقتضَتْنِى هذه المعابثُ مَزِيداً من النفقات ، فكنتُ أفزَعُ إلى زوج أخى ، وهى فى حجرتها التى لم تكن تَرِيمُها إلا فى النَّدْرة ، وكأنما ألزمتْ نفسَها أن تكون فيها سجينةً بلا سَجَّان . وأظلّ أتلطَّفُ بها فى طلب المال ، وأتحوَّلُ كلَّ حيلة للحصول منها على ما أطلب ، متفنناً فى التعليل والتسويغ ، ولا أزال كذلك حتى أظفَرَ بِبُغْيَتِى مرةً بعد مرة .

على أن زوج أخى كانت سخيةً علىَّ ما وَسِعَها أن تسخو ، تأبَى أن تردَّنى خائبَ الأمل ، ولكنها كثيراً ما استبقَتْ يدى بين يديها تهزّها فى حُنُوّ ، وهى تحدِّق فى عينى قائلةً لى : كن عاقلا يا بُنَىَّ فى تصرفاتك ، وحاذِرْ أن تُغْوِيَك نزغات السوء .

وكان يطيبُ لى أن أطيلَ جلوسى إليها ، أحاولُ أن أفاكهَا وأن أسرِّىَ عنها ، ولكنَّ الكآبة التى رانَتْ على هذه الحجرة كانت تريدُنا أحياناً على صمت مُطْبِق ، فألبثُ قُبالَةَ زوج أخى أرنو إليها كاسفَ البال ، وهى قابعة فى ركود واستسلام ، على عينيها نَظَّارتها الزرقاء تزيد مُحَيَّاها من شحوب . وأجدنى أهمهم :

حتى متى تظلين فى هذا العذاب ؟

— هذا أمر الله يا بُنىَّ !

فأشدُّ على يدها أقول :

لماذا لا تخرجين للنزهة والترفيه عن النفس .

فتربِّتُ كتفى متنهدةً تجيب :

أنت طيبُ القلب يا « سامى » ، أعلم أنك تحبُّ الخير لى . . . انهَضْ يا بنى ، فتمتع بشبابك ، فالدنيا لأمثالِك !

أما أخى فقد أصبح يزور الدار زيارةَ الضيف ، ويلوحُ فيها كما تلوح سحابة الصيف . . . وكنتُ أتنكَّبُ عن مرآه ، ولكننا كنا نتلاقَى اتفاقا ، فلا يزيد ما بيننا على أن أحييَه على كُرْه ، فيعقِدُ لى جبينَه ، ويَمُطُّ شفتيه ، وهو يردّ تحيتى مغمغِماً لا يُبِين .

ولطالما كان يَغْلُو بى فضولى ، أريد أن أعرفَ أين تسكن « تهانى » ؟ وكيف تعيش ؟ وعلى أى نحوٍ تعاشر أخى ؟ فأكاشف « أم خضير » بمُرَادِ نفسى ، فتُنْهِى إلىّ أطرافاً من الأخبار والأحداث ، تَهِيج بها رغبتى فى طلب المزيد .

وحان يوم كنتُ فيه أعتلى مركبتى ، فبرقَتْ فى خاطرى فكرة هيمنتْ علىّ ، فهمستُ فى أذن « مدبولى » بكلمات ، فنظر إلىّ مدهوشا يهزّ رأسه هِزَّةَ الامتناع ، ولكنى ألححتُ وأصررتُ ، فوجَّهَ قِيَادَ المركبة وِجْهَةً أخرى ، ومضى بى إلى حيثُ أريد .

وجازت المركبةُ بدار فَيَّاحة تُحيط بها حديقةٌ رشيقة ، فالتفتَ « مدبولى » إلىّ غامزاً بعينه ، مُومِئاً إلى الدار ، ثم لَسَع ظهرَ الحِصان بسوطه ، فانطلقتْ عَجَلات المركبة تطوى الطريق .

وملكتنى نشوةٌ حين ظَلِلْتُ أتتبع الدارَ بنظرات منهومة ، والمركبةُ تنأى بى عنها فى غير مَهَل .

وبغتةً أمسكتُ بيد « مدبولى » أقول له : قِفْ !

— لماذا ؟

فَشَدَدْتُ عِنان الحصان من يدِه ، ووقفتُ المركبة وأنا أقول : ستنتظرنى قليلا .

ونزلتُ عن المركبة وَثْبا ، وتوخيتُ الدار ، وأنا أتلفَّت محاذِراً أن يرانى أحدٌ ممن أعرف ، وما إن قاربتُ البابَ حتى لمحتُ مركبةً فخمة مُقْفَلَة تبارِحُ الدار ، فانزويتُ أرقُب ، وجازت المركبةُ غيرَ بعيد منى ، فإذا فيها أخى و « تهانى » تتألَّقُ على وجهيهما البهجةُ والمَرَح ، فاضطربتْ نفسى ، ورجعتُ إلى مكان مركبتى ، تتقاسَمُنِى مشاعرُ متناقضة. وما كان أشدَّ دهشتى إذْ رأيتُ المكان خالياً من المركبة ، فجعلتُ أدور يَمْنَةً ويَسْرة فى تعجّب وحيرة ، وبعدَ لأْىٍ رأيتُ « مدبولى » مترجِّلا يبحث عنى ، فصحتُ به : أين المركبة ؟

— خَبَأْتُها فى زُقاق هنالك . كدتَ تُوقعُنى فى بَلِيَّة وشرّ ، فقد لمحتُ مركبةَ أخيك قادمة ، فسارعتُ إلى الإختباء .

ووافيتُ البيتَ ، لا يبرَحُ رأسى مشهَد « تهانى » فى صُحبة أخى وقضيتُ فى الحديقةِ ساعةً تراوِدُنى فكرة معيَّنة ، وأنا أرسُم لتحقيقها خطة محكَمة ، وزُهِيَتْ نفسى بما أحسستُه من جرأتى ومَضاء عزمى .

وفى صبيحة غدى ، كانت تلك الفكرةُ المعينة قد اختمرتْ فى رأسى ، ولم يَعُدْ لى مَصْرِف عن إنفاذها فى غير وَناء . فخرجتُ من الدارِ مشغولَ البال بما أنا فيه ، ألتمس فى التَّجوال فُرْجَةً وتسرية . وشَدَّما أدهشنى أن أطالعَ وجهاً طال مَغِيبُه عنى سِنِينَ ، ذلك هو وَجْه القَزَم

المُشَوَّه ، صبيّ البستانى القديم . . . إنه « العيوطى » الذى طَرَده أخى شرَّ طَرْدَة !

اقترب منى هابطاً على يدى يقبِّلها ، وهو يقول فى مَسْكَنة :

الحمدُ لله على أنك بخير يا سيدى . جئتُ أراك يا سيدى !

فعَجِبْتُ لذلك الذى عَهِدْتُه متمرِّداً شَغُوبا ، كيف صار اليوم متخاضِعا ذَلِيلًا ؟ فقلت له :

كيف أنتَ يا « عيوطى » ؟ أين كنتَ هذه السنوات ؟

— كنتُ فى الصعيد أعمَل .

وجعلتُ أتفرَّس فيه ، فخُيِّلَ إلىَّ أنه قد تقاصَرَ عن ذى قبل ، وأن أخاديدَ وجهِه قد مَشَى بعضُها فى بعض ، وأن جبهتَه بها نُدُوب غائرة ، وأن فَمَه قد تحطمتْ فيه الثنايا .

فقلتُ له فى إشفاق : وماذا تعمَل الآن ؟

فتطلع إلىَّ يَفْرُكُ يديه ، ويبتسم قائلا : أبحث عن عمل .

وأخذتُ أخطو فى الطريق ، وهو بجانبى يتحدَّث إلىَّ حديثَ هِجْرته إلى الصعيد ومُقامِه فيه ، وتنقُّلِه بين النُّجُوع والأصقاع ، مشاركاً فى شَقِّ الترع ، وتمهيد الجسور ، يزاول ألواناً من المغامرات ، ويذوقُ من العيش طَعْمَيْه الحلوَ والمرَّ .

وكنتُ فى أثناء حديثه لا أُلقِى له سمعى كلَّ الإلقاء ، فقد حَلَّقَتْ بى الخواطرُ فى آفاق أخرى ، كثيراً ما كانتْ تتراءى فيها « تهانى » مع أخى تحويهما المركبةُ الفخمة .

ووجدتُنى أُدْلِى بنظرى إلى « العيوطى » وقد لمحَ فى رأسى خاطر جرىء ، فقلت له :

أَلْقَنِى غدا . . . أنا فى حاجةٍ إلى من أثِقُ به ، لِيُنْجِزَ لى أمرا .

وما أسرعَ أن دسَسْتُ فى يده مِنْحة طيبة من النقود ، فجعل يقول :

لا حَرَمَنِى الله خيرَك . . . أنا طَوْعُ أمرك !

ولما لَقِيتُ « العيوطى » فى غدٍ خلوتُ به أرسُم له مهمته ، وأفهمتُه كيف ينجزها على خيرِ وجه ، ورغبتُ إليه فى أن يأتىَ إلىَّ كلَّ مَساء بما عنده من الأخبار .

ومضتْ أيام كنتُ أرتقبُ فيها كلَّ ليلة مَقْدَم « العيوطى » علىَّ ، فأنتحى به ناحيةً أسأل وأستفسر ، متقصِّياً فى السؤال والاستفسار ، وهو ينفُض لى ما وراءه فى حماسة ويقظة واهتمام .

وحلَّ يوم بلغتْ فيه مهمةُ « العيوطى » منتهاها ، فقد أنهَى إلىَّ أن « تهانى » ترحَّب بمَقْدَمى عليها ، وأنها فى ارتقابِ فرصةٍ تتحيَّنُها لألقاها فى دارها خُلْسَةً وراء الأنظار . . .

وفى وقتِ الظهيرة من غدى ، رجعتُ إلى دارى ، فإذا أنا أجد « العيوطى » بالبـاب ينتظر ، مهتاجَ النفس ، متهللَ الوجه .

فبادرتُ أسأله : ما وراءك ؟ ماذا أسرعَ بك ؟

فأمسكَ بيدى ، ومضى بى صامتاً خطوات ، وجعل يشرئبُّ إلىَّ وهو يهمس قائلا : إنها فى انتظارِ قدومك عليها عصرَ اليوم . . .

فوقفتُ مأخوذاً لا أملِكُ سكينةَ نفسى إزاء هذه المفاجأة .

وماعَتَّمْتُ أن قلتُ : كيف السبيلُ إلى دخولِ المنزل ؟

فابتسم ابتسامةَ دهاء وتخابُث ، وقال :

هـذا شأنى . . . كُنْ مطمئنا .

وأمضيتُ الوقتَ دائبَ الحركة ، موصولَ السعى ، لا أنجزُ عملا ، ولا أعرفُ لى من قَرَار . وطالما وقفتُ أمام صِوَانِ الثياب ، أوازنُ بين الحُلَلِ جديدها وقديمها ، أيُّها ألبس ؟ وأيُّها أليَق ؟ وطالما بعثرتُ أربطة الرقبة أحـدِّقُ فيها لا أدرى ماذا أتخيرُ منها ؟ حتى دقتْ ساعةُ الحائط تؤذِنُنِى بأن الموعدَ قد أزِفَ ، فَرَدَدْتُ باب الصِّوان أُغْلِقُه ، وقد استقرَّ رأيى على ألا أضيعَ وقتى فى استبدال ملبس بملبس . ووجدتُنى أَمْثُلُ أمامَ المِرْآةِ عجلانَ أُصْلِحُ من هِنْـدامى ، وأُطَرِّى شعرى . ثم ما هى

إلا أن عَدَوْتُ أقفِز على الدَّرَج ، حتى بلغتُ بابَ الدار ، فعثَرْتُ « بالعيوطى » كامناً يَرْصُدُ نزولى .

وسرنا معاً فى خُطاً خِفَاف ، حتى صادفتْنا مَركبةُ أجرة ، فاستوقفَها « العيوطى » وطلبَ إلى السائق أن يَقْصِدَ بنا جهةً أجهلُها ، فسألتُ « العيوطى » فى ذلك ، فأجابنى :

لا نستطيعُ الذهابَ إلى بيت « تهانى » توًّا ... علينا أن نمهِّدَ للأمر !

وصَعِدنا فى المركبة ، فمضتْ بنا تُكَركِر ، و « العيوطى » يشرح لى ما دبَّر من خُطة ، ثم جعل يدلُّ السائق على الطريق .

ونزلنا عن المركبة أمام دار زَرِيَّةٍ مستهدِمة ، فسبقنى « العيوطى » داخلًا فيها ، وأنا على أثَرِه ، حتى أفضَى بى إلى حجرةٍ مُعْتِمَة تهبّ منها رائحة كريهة ، وتركنى هُنَيْهة ، ثم عاد إلىَّ يحمل صُرّةً ففضّها بين يدىّ ، وأخرج منها ثوباً نِسْوِيًّا وبُرْقُعاً ومُلاءةً سوداء ، وهو يقول :

البَسْ على بركة الله !

فألقيتُ على الملابس نظرة استغراب ، وعجبتُ كيف يريدُنى « العيوطى » على أن أتزيّا بهذا الزىّ ؟ وانفجرتُ ضاحكا على حينِ بغتة ، حتى دمعتْ عيناى ، فهزّنى « العيوطى » قائلا :

حانَ الموعدُ ... هيّا ... لا نُضِعِ الوقتَ !

وشرعتُ أستبدل بملبسى هذا الزِّىَّ النَّسْوى ، يعينُنى « العيوطى » على إحكام ارتدائه والظهور به .

وانتابتنى نَشْوَة السادِرِ الطليق ، فجعلتُ أقهقه فى غير مبالاة ، وخرجتُ مع « العيوطى » فى لَبُوس التَّنَكُّرِ ، فأقلتنا مركبةُ أجرةٍ تنهَبُ بنا الطريق إلى دار « تهانى » ، فلما كانتْ منها عن كَثَب ، نزلنا عن المركبة نترجَّل ، ووقف « العيوطى » يقول :

تشجَّعْ ، واضْبِطْ نفسك ، وادخلْ على بركة الله ! . . . ادخُل وحدَكَ من الباب الخلفىِّ . . . إنها فى انتظارك هناك .

ونحوتُ نحوَ الباب ، فما إن دخلتُ حتى وجدتُنى فى رَدْهَة صغيرة ، فقطعتُها وقلبى دائبُ خفوقه إلى بابٍ على اليمين ، ونَفَذْتُ منه محاذِراً سريعَ التلفت إلى دِهْليزٍ استقبلتْنِى فيه هَبَّةٌ من عطر ليس عنى بغريب . . . فسرتْ فى أوصالى انتعاشة ، وانبعثَتْ فى مشاعرى يَقْظَة ، ورأيتُنى أخطو نَشْوانَ .

وبغتةً برزتْ لى « تهانى » ، فوجدتُنِى أخِفّ إليها ، وألفيتُها تأخذ بيدى ، وهى تحدِّقُ فىَّ ، وتَكْبِتُ فى فمِها ضَحِكَات .

وراعنى منها أولَ ما راعنى عيناها الجيَّاشَتان بأحاسيسَ فوَّارة عارمة ، فلم أعد أقوَى على أن أطيلَ فيهما النظر .

وسرنا معاً ، فقالت لى فى همس :

شكرتُ لك تفكيرَكَ فىّ ... جميلٌ منك أن تتكبَّدَ هذه المشقاتِ فى سبيل لقائى . . . إن المغامرات تستهوينى كلَّ استهواء .

فضغطتُ يدَها وأنا أهمهم : فى سبيلك كل صعب يهون !

وشعرتُ فى هذه اللحظة بأنى أكاد أختنق تحتَ وطأة ذلك البرقع المشدود على وجهى ، فهممتُ بأن أفكَّ وَثَاقَه عنى ، فعاجلتْنى « تهانى » تمنعنى ، وهى تقول : دَعْه قليلا .

واجتزنا المَمرّ ، فأسلمَنَا إلى حديقة محدودة خلفَ الدار خاصَّةٍ بالحريم ، فى طَرَفها مَنْظَرَة خشبيَّة رشيقة ، فلما دخلناها أغلقتْ « تهانى » بابها إغلاقاً محكماً ، وهى تقول لى :

هنا يَسَعُك أن ترفعَ بُرْقعك ، وأن تخلع مُلاءتك أيضا !

فما أسرعَ أن فعلتُ .

وكانت المَنْظَرَة ذاتَ أثاث طيّب يَعْمُر بوسائل الراحة والرفاهة ، فجلستُ على متكإٍ وَثِيرِ الحشايا ، وأنا أمسَح وجهى ، وأسوّى شعرى ، فوقفتْ « تهانى » ترنُو إلىّ ، ثم قالت :

لا أستطيع أن أجالسَك وأنتَ فى زِىِّ امرأة . . .

ثم جذبتْ من تحت إحدى الوسائد مَنَامَة هفهافةً ناولتْنى إياها ،

فقمتُ إلى ركن أخلع ثوبى النِّسْوىّ ، وألبس المنامة ، على حين أخذتْ « تهانى » تنظر فى مِرْآة لها ، تستكمل زينَتَها ، فلما فرغتُ من أمرى طابَ لى أن أفاجئَها ، فأختلسَ منها قُبلة فى عُنُقِها ، ففطنتْ إلى ما أريد ، وتنحَّتْ بوجهها عنى ، وهى تقولُ فى ملاطفة :

ما ذا كنتَ تبغى أن تفعل ؟ أعَزَبَ عنك أنى زوجُ أخيك ؟

ونظرتْ إلىَّ تتبينُ أثرَ قولها فى نفسى ، ثم استأنفتْ تقول :

اجلِسْ قُبالتى نتحدث .

فجلستُ حيثُ أشارتْ ، ورأيتُها تُندَّى مِنْدِيلها بالعِطر ، وتَدْلِك به وجهى فى دُعابة ورِقَّة .

وكانتْ بيننا لحظَاتُ صمت ، عَبِثَتْ فيها « تهانى » بِقِلادَةٍ تتَدَلَّى على صدرها ، وهى ترْقُبُنِى ، وعلى ثَغْرِها ابتسامةٌ خفيفة .

ثم قالت : لا أحسَب « مودّة هانم » إلاَّ حاقدةً علىّ !

ونهضتْ تخطُو فى خُيَلاء ، فطفتُ شَفَتِى وأنا أُجِيبُها :

لم يكن من ذلك شىء !

فعادتْ تواجِهُنى ، وما زالتْ القلادةُ بينَ أناملها تعبَث بها ، وتقول : إنها تمُوتُ كمَدًا . . .

وتعالتْ من فمها ضِحْكة مجلجلة هازئة ، وقصدتْ إلى مِنْضَدَةٍ

صغيرة ، فتناولتْ منها مِرْوَحَةً جعلتْ تبسُطها وتطويها ، وتتظاهر بأنها تتفحَّصها فى دقة ، فشعرتُ بأنى أضيق بما تقول ، ولكنى كَظَمْتُ شعورى ، وأجبتها غيرَ مكترث : واقعُ الأمرِ أن « مودَّة هانم » تواصل حياتَها المألوفة ، كما هى حالُها من قبل .

فاقتربتْ منى ترمينى بنظرةٍ باهرة ، ومالتْ على كتفى تداعبُنى بِمِرْوَحَتِها ، وقالت : لا تتكلفْ إخفاء الحقيقة ، فقد شاعَ أمرها وذاع . . . أنتَ لا تُحْسِن الدفاعَ عنها ياصاح !

وفاجأتْنى تَلْطِمُ خدِّى بِمِرْوَحَتِها لطمة خفيفة ، وهى تسترسل فى تضاحُكِ اعتزازٍ واستعلاء .

واستدارتْ ماضيةً عنى ، فانتفضتْ أوصالى من حَمِيَّةٍ وغيظ ، وسألتُ نفسى : أكانَ قُدومى إلى هذا المنزلِ لأسمعَ تلك القوارص ؟

وألفيتُنى أنهَضُ خلفَها وأنا أقول : مالَكِ ولهذا الكلام ؟

فعدلَتْ بوجهها إلىَّ تُجيب فى تهكم :

معذرةً يا « سامى » . . . لم يكنْ فى علمى أنك حَسَّاسُ العواطف نحو « مودَّة هانم » إلى هذا الحدّ ! . . .

— إنها زوجُ أخى .

— زوجُ أخيك . . . لولا إشفاقى على هذه العجوزِ لما تركتُ

أخاك يُبْقِى عليها إلى اليوم . . . فى مُكْنَتِى أن أجعلَه يخلَعُها من عِصْمَتِه فى أىّ وقت أريد !

فصحتُ بها ، وقد تضرَّج وجهى غضباً :

حسبُكِ يا « تهانى » ... الزمى حدَّك !

فاعتدلتْ قُبالَتى تضع يديها على كتفى ، ونظرتْ إلىَّ ، ثم قالت ساخرة : لم هذه الحِدَّة ؟ رَوِّقْ دَمَك !

ولَطَمَتْ خدى بِمِرْوَحَتِها لطمةً أشدَّ من الأولى ، وهى تقول :

حقًّا إنك لقليلُ الذوق فى مخاطبتى . . . أنا زوجُ أخيك ، ولى عليك حقوق !

فوقفتُ حِيالَها حيران ، يخونُنى منطِق ، ولا يسعفنى تدبيرى .

وكنتُ أحدِّث نفسى وأنا أحدِّق فيها :

ماذا يجب أن أعمَلَ إزاء هذه الغانيةِ المتمرِّدَةِ الشَّغُوب ؟

وتواقَفْنا وقتاً نتراشَق بالنظرات ، وما هى إلا أن رأيتُها تهبِط علىَّ فتأخذُ برأسى بين يديها ، وتُشبِعُنِى تقبيلا . . .

١٨

تتابعتْ الأشهر تَسِمُ حياتى بهذا المِيسَمِ الجديد ، مِيسَمِ العلاقة الأثيمة بينى و بين « تهانى »، فكنتُ أتحوَّل أشتاتَ الحِيَل لملاقاتها فى منزلها بِنَجْوَةٍ من أعين الرقباء ، وكان « العيوطى » همزةَ الوصل فى هذه الزَّوَرَات الخفيَّة ، وظلت المَنْظرة هى المُلْتَقَى ، ، أقضِى فيها مع « تهانى » سُوَيْعَاتٍ فى رعايةِ الشيطان .

ما أعجبَه هَوًى يربط بين قلبينا : أنا و « تهانى » . . . فما كانت جَلساتنا مَحْضَ صفاء ، ولا خَالِصَ متعة وإيناس ، بل لقد كان يَشُوبها دَوْمًا ضروبٌ من المشاحنات ، تُثيرها « تهانى » بينى و بينها ، وتُمِضُّنِى فيها بما يرنِّح أعطافها من كبر واستطالة وتآمر .

وكان شَغْبُها علىَّ ينتهى أبداً بأن تَعْمِدَ إلى مِرْوَحَتِها ، فتَلْطِمَ بها وجهى ، حتى لقد حانتْ ساعة آذَتْنِى لَطْمَتُهَا ، فوجدتُنى أنتزع هذه المِرْوَحَةَ من يد « تهانى » وأنا أقولُ ثائراً :

إذا لم تَكُفِّى عن هذا العَبَث فإنى أُرِيكِ ما تكرهين .

ـ لا تستطيعُ معى شيئاً . . .

فرأيتنى أرفع المِرْوَحَة فى وجهها ، أُوشِكُ أن أهوِىَ بها عليه ،

وإذا أنا أنهالُ على المِرْوَحَة تمزيقا ، وأمْرُقُ من المَنْظَرَة مرُوقَ القَذِيفة فى الفضاء .

وأقسمتُ غيرَ مرة ألا تطأَ قدمى هذا المنزلَ الكريه ، وألا أواصلَ هذه الغانيةَ النكراء ، ولكنى كنت أَحْنَث وأحنَث ، وأتعرضُ لألوان من المغامرات والأخطار ، لكى أستأنفَ مع « تهانى » تلك العلاقة المحرَّمة الغبْرَاء .

ولم أسترحْ من مشاغبات المِرْوَحَة طويلا ، فلقد كنتُ كلما مَزَّقتُها لا تلبث أن تبرُزَ فى يدِ « تهانى » على نحوٍ جديد !

ويوماً ضِقْتُ بلطمة المِرْوَحَة ذَرْعا ، فما إن مَسَّت وجهى ، حتى انتفضتُ أجتذبها من يد « تهانى » ، وهممتُ بأن أمزِّقها شرَّ ممزَّق ، كما هو دأبى من قبل . ولكنى وجدتُنى أمتشقها فأضربُ بها وجهَ « تهانى » مرةً بعد مرة فى غِلْظَةٍ وعنف ، ورأيتُ « تهانى » قد رِيعَتْ مما أصابها ، وعاجلتْها بَهْتَة ، ثم ما لبثتْ أن ولولتْ وهى تَحْمِى وجهها من سَقَطات المِرْوَحَةِ ، وإذا هى تتهاوى ويستبدُّ بها نَشِيج . . .

ووقفتُ حِيالَها كالمذهول ، لا أدرى كيف صنعتُ ما صنعتُ ؟ واستمرتْ « تهانى » تَنْشِج كأنها طفل يتوجَّع ، فشعرتُ بقلبى تُداخله

اللَّوْعَة ، وسألتُ نفسى : أكانتْ تستحقُّ منى هذه القسوة ؟

ورفعتْ رأسها إلىّ ، تُصَعِّد نحوى نظرة حامية ، وهى تقول :

أُغْرُب عن وجهى !

ولمحتُ على خَدَّيْها أثر الضربات ظاهراً شديدَ الاحمرار ، فما تمالكتُ أن أقبلتُ عليها ، آخذاً بكتفها ، وهى تَلْوِى كَشْحَها عنى ، وتقول : دَعْنى . . . . دَعْنى !

فتشبثتُ بها ، قائلاً فى لهجة استرضاء :

لم أكنْ أقصد أن أسوءك . . . أخطأتُ . . . لا عليكِ !

وجذبتُها إلى صدرى ، واندفعتُ أنثُر قبلاتى على وجهِها جُزافا .

وترادفتْ الأيام ، تتوالىَ فيها زوراتى لبيت « تهانى » . . . وكان أكبرَما استرعَى نظرى أنه منذ ذلك اليومِ الذى قسوتُ فيه عليها اختفتْ المِرْوَحَة كلَّ اختفاء ، ولم يَعُدْ لها فى حياتنا من أثر !

وجَدَّ من أمرى أنى أحسستُ فى علاقتى « بتهانى » نزعةَ العِزة والشُّموخ ، وعلى الرغم من أنها قد استكانتْ لذلك الانقلابِ الذى طرأ علىّ ، فقد كانتْ فى الحين بعد الحين تعاودها الشراسة والصَّلَف ، تحاول أن تستردَّ سلطانها المسلوب ، فَأَرانى قد سارعتُ إلى العُنْفِ

بها ، غيرَ متورِّع عن ضربها ، حتى تَفِيءَ إلى سكينة وانقياد .

وعلى مَرِّ الأيام كنتُ أزداد تطاوُلاً عليها ، مع كَلَفى بها ، وانجذابى لفتنتها ، فلا تكاد تَبْدُرُ منها هَنَات حتى ألتمسَها سبباً لانتهارها وتأديبها فى غير هوادة . بل لقد كنتُ أتجنَّى عليها ، وأُدبِّرُ لها من حبائلِ المُنَاكَدَات ما يُوقِعُها تحت طائلةِ العِقاب الصارم . فإذا بلغتُ من ضربها وإيذائها مَأْرَبى أحسستُ نشوةً تتسرَّب فى دمى ، واعتداداً يملأ أقطارَ نفسى .

وذاتَ يوم ونحن فى شُجون من الأحاديثِ ، ألفيتُها تَفْجَؤُنى دونَ مناسبة بقولها : ماذا تعرِفُ من أمرِ « فتحية » ؟

فصدَم سؤالُها نفسى ، ولم أُحِرْ من جواب ، وجعلتُ أَحْدِجُها متفحِّصاً ، فراحتْ تخطو أمامى فى خُيَلاَء ، وفى فمِها لِفافتها تنفُث دخانَها فى غير مبالاة . وواصلتْ حديثَها تقول :

« فتحية » ابنة ضابط المدرسة . . .

وأسبلتْ لى جفنَها فى خُبث ولؤم ، وتَعَمَّدَتْنى بنفثة من دخانها فى قِحَة وجرأة ، فنهضتُ غضبانَ حَمِيًّا أمسِك بيدها فأضغَطُها وأنا أقول : ماذا تَقْصِدين بقولك هذا ؟

فجذبتْ يدَهَا من يدى ، وهى تقول :

عجبتُ لك ! . . . أىُّ ضيرٍ علىَّ فى أن أسألك ؟

فرفَعْتُ يدى أهمُّ بأن ألطِمَها ، فرأيتُ وجهها قد ا كفهرَّ ، وا كتسَى سَحْنَةَ نَمِرَةٍ توشك أن تنقضَّ على الفريسة .

وسمعتُها تتحدَّانى بقولها : أأنت تبغى أن تضربَنِى من أجل هذه المخلوقة الحقيرة ؟ . . . جرِّبْ ما تريد !

فهجمتُ عليها ، ولكنها كانت هذه المرةَ خَصْماً غلاَّباً لا يَلين ولا يستكين . ونَشِبَ بيننا شِجار شديد ، شَعَرْتُ فيه بأظفار « تهانى » كأنها نِصال مسنونة تَعيثُ فى وجهى فساداً . . .

وخرج كلانا من المعركة : شَعْرُهُ منفوش منتزَع ، وثيابُه مهلهلة ، وجراحُه تَدْمَى . وما هى إلا أن سقطْنا جميعاً على أديمِ الأرض محطَّمَيْن لا نملك لأنفاسنا تصعيدا ، وجعل كلٌّ منا ينظر إلى صاحبِه ، فيرى فيه صورةَ مخلوق شريد نَبَذَتْه الحياة !

ولبثْنا نتبادَل النظرات فى صمت ، وأخذتْ « تهانى » تمسَح جبينَها بيدها ، ثم رفعتْ رأسها ، تدور ببصرها يَمْنَةً ويَسْرَة ، فحَزَرْتُ أنها تبحث عن منديلها ، فأخرجتُ منديلى أقرِّبه إليها ، فإذا هى تدفَع يدى عنها ، فتدانيتُ منها على مَهَل ، وجلستُ بجانبها أمسَح وجهَها فى رِفق ، ثم أمسكتُ بيدها وأنهَضْتُها أُجْلِسُها على المُتَّكإ ،

ثم قصدتُ إلى زجاجة العطر ، فعُدْتُ إليها أُنْشِقُها وأنضَحُ وجهَها ، ثم انثنيتُ أصنَع بنفسى ما صنعتُ بها ، وأخذتُ مجلسى بجانبها ، وَأَرَحْتُ كَتِفى على رأسها ، ولبثتُ ألاطف شعرها ، فلمحتُها تُرْخِى جفنها ، وألفيتُنى أقول كأنى أحدِّث نفسى :

ألا يمكنُ أن تظلَّ علاقتُنا فى صفاء ؟ وألاَّ تشوبَها تلك الأكدار؟

وامتدَّ بيننا صمت ، ولاحظتُ أن « تهانى » قد أخذَتْها سِنَة من النوم ، ورأسُها يتوسَّد كتفى !

ولما قفلتُ إلى منزلى هذه الأُمْسِيَّة ، تصفحتُ ما دار فى زورتى « لتهانى » ، فبرزتْ لى « فتحية » تحتلُّ تفكيرى كلَّه ، وازدحمتْ ذِكْرَياتُها تَسُدُّ علىَّ كل منفَذ ، ولاح لى طيفُها يتنقَّل فى حجرتى مختلفَ الأوضاع ، فيبعث فى ذاكرتى مشاهدَ حياتها معى فيما سَلَفَ من أيامى .

وَظَلِلْتُ مهمومَ النفس ، مُزْعَجَ البال بهذه المشاهد والأطياف ، فلم يهدأ لى خاطر إلا بعد أن بنيتُ عزمى على أن أعمَلَ شيئاً من أجل « فتحية » . . . . . شيئاً حاسماً ينقذها مما تعانيه !

لا بدَّ أن أبدأ ذلك من غدى . . .

وخلوتُ « بالعيوطى » أتقدَّم إليه بما أريد ، وطلبتُ منه أن

يسأل عن مُقام « فتحية » فى الضَّيْعَةِ التى حُمِلَتْ إليها ، وأن يستقصىَ أخبارها كل استقصاء . فأنهى إلىَّ بعد أيام أن زوجَها شيخَ الخفر انتقل بها إلى بلده الأصيل ، وأنه لا علمَ لأحدٍ بشىء من أخبارِها أو أخباره .

فقرَّ عزمى على أن أواصلَ البحث ، وأتابعَ التحرِّى والتفتيش ، حتى أبلغَ مأرَبى من التعرُّف والتحقيق ، تمهيداً لما أقومُ به من عملٍ حاسم فى سبيل « فتحية » .

ولكن توالتْ العَدَاة والعَشِىُّ ، وأنا لا أجدُنى قد أبرمتُ فتيلاً !

١٩

وأذكُر أنى فى إحدى زَوَرَاتِى « لتهانى » وهى على صدرى أطوِّقُها بذراعى ، وأعيننا موصولةُ النظرات ، وجدتُنى جَيَّاشَ النفس ، ألتهب افتتانا بتلك الإنسانة الخلابة التى أستمتع بها أروعَ استمتاع .

فأهويتُ عليها أقبِّلها وأضمّها ، كأنِّى أخشىَ أن تضيعَ من يدى ، وسرعان ما همْهَمْتُ أقول : أيقبِّلُك أخى كثيرا ؟

فلاحتْ على ثغرها بَسْمة ، وأومأتْ برأسها علامةَ الإيجاب ، فشددتُ عليها قائلا : أنتِ تكذبين .

فردَّت علىَّ تقول : ولماذا أكذب ؟ لقد أخبرتُكَ بالحقيقة !

فقلتُ لها مَغيظا : ماذا عسَى أن يكونَ من رجل هَدَّمَتْه السنون، وألحَّ عليه الضعف ؟

فتعالتْ ضِحْكتها ، وتابعتُ قولى لها :

إنه يحسن التثاؤب والتمطِّى ، فأما غير ذلك فلا . . .

وأغمضتْ « تهانى » عينيها ، وهى تُدْنِى منى فَمها ، فأخذتُ شفتيها بين شفتىَّ ، وجعلتُ أتفنَّنُ فى تقبيلها وأنا أقول :

أخى لا يستطيع أن يقبِّلَك على هذا النحو . . . لا أسمحُ لكِ أن يَقْرَبكِ أحدٌ سواى . . . لا أسمحُ لك بأن يمسَّ فَمَكِ إلاَّ فمى !

هِمْتُ « بتهانى » أشدَّ هُيام ، فلم أَعُدْ أطيق عنها بُعْدا ، وكثيرا ما كنتُ أقضى أياماً فى دارها ، حبيسَ تلك المَنْظَرة ، فأقاسمُ أخى حياته : مَطْعَمَه ومَشْرَبه وملبَسه ، فضلاً عن أنى أقاسمُه زوجتَه ، وذلك كله دون أن يعلمَ من أمرِه شيئا قلَّ أو كثر !

ولا أدرِى ما سرُّ تلك النشوة التى كانت تهزُّنى وأنا فى مَحْبِسى ،

حين كنتُ أحسُّ بأن أخى على مَقْرَبة منى ، يَدِبُّ فى أرجاء البيت دَبِيباً . . .

ما كُنْهُ تلك العاطفة الشاذَّة التى أخذتْ تنمو نُمُوَّها بين ضلوعى نحو أخى ؟

لماذا لا أَفْتَأُ أُمْعِنُ التفكيرَ فيه ، وقلبى ترعاه نارٌ تتلظَّى ؟

لقد شعرتُ على مَرِّ الأيام بأن تلك النزعة الشاذة تتجسَّم وتتضخَّم ، وأنها أشبَهُ ما تكون بوحش مفترِس يتنزَّى بين ضلوعى متحفِّزاً لِانفكاكٍ وَوِثَاب .

فأما الدنيا فى عينى فقد اكتستْ أمامى صِبْغَة غائمة قاتمة ، ولطالما وجدتُنى كأنى أسمعُ وساوسَ نفسى تحدِّثنى بأشياء تتمثلُ فيها الفجيعةُ والرَّهَب .

ومرةً سنَحَ لى خاطر مفزِّع ، فأردتُ أن أُفضِىَ به إلى « العيوطى » ليعينَنى على إنفاذِه ، وخرجتُ أبحث عنه ، وأنا أَشَمُّ رِيحَ الجريمة يَزْحَمُ خياشيمى !

ولما لَقِيتُ « العيوطى » انتبذتُ به مكاناً قصيًّا فى دارى ، وهممتُ بأن أناجيَه بذاتِ نفسى ، ولكن مَلَكَتْنِى رِعْدَة ، وخُيِّلَ إلىَّ أن « العيوطى » قد انقلب شُرْطِيًّا يَحْدِجنى بنظرة اتهام . . . وعن كَثَب

منه جُثَّة يَشْخُبُ دَمُها غزيرا .

فما عَتَّمْتُ أن أدبرتُ عن « العيوطى » حَثِيثَ الخطا ، وصَعِدت إلى حجرتى ، وانكفأتُ على فراشى مُلتاثَ العقل ، محمومَ الجسد ، أهذِى بقولى :

مالى ولأخى ؟ ما مددتُ إليه يدى بسوء . إنى من دمه بَرِىء !

ورقدتُ فى حجرتى يومين صريعَ التهافُت والخمول ، تلازِمُ فراشى زوجُ أخى ، وتتعهَّدُنى بألوانٍ من الرعاية والعطف ، ولا تفتأ تُطَيِّبُ الحجرة بالبَخُور الزَّكِىِّ . . .

وسمعتُها تقول ، وهى تضغَط يدى :

ألا تغيِّر من سلوكك يا « سامى » ؟ . . . ألا تهتدِى يا بُنَىَّ ؟ إنى أخشَى عليك مَغَبَّةَ ذلك الضلال !

و بعد أن تماثلتُ من تلك الوَعْكَة ، مضيتُ إلى « تهانى » أصل ما انقطع من علاقتى بها . فأقبلتْ علىَّ مشبوبةَ الشغف ، بالغةَ التَّرْحاب ، ترمى بنفسها بين يدىَّ ، فأردتُ أن أستجيبَ لها ، وأن أُبارِىَ عاطفتها ، وإذا بِغشاوةٍ قد انسدلتْ بينى و بينها ، تنسابُ عليها دماء ، وعلى صفحتها يتخايل وجهُ أخى جاحظَ العين ، فاغرَ الفم ، سليبَ الحياة ، وكأنه يُومِئُ إلىَّ إيماءةَ اتهام . فارتددتُ خطوةً فى

فزع واضطراب ، وأسندتُ إلى المتكإ جسمىَ المتداعِى ، والعَرَق يرفَضُّ من جبينى . . .

وسمعتُ تهانى تقول : ما بك ؟

فأجبتُها زائغَ النظرات :

يبدو لى أنى ما زلتُ موعوكا ، لم أسترجعْ صحتى بعد . . .

فأسعفتْنى ببعض المنعِشات ، وبذلتْ جهدَها فى التسريةِ عنى .

وأدهشَنى من شأنى أن هذه الظاهرةَ الجديدةَ كانت تعترينى فى أغلب زياراتى « لتهانى » ، فلم أكنْ أجدُ من نفسى ذلك الإقبالَ الذى عَهِدْتُه نحوَها . إذا جلستُ إليها أرانى قد تبلَّدَ حِسِّى ، وانغلقتْ نفسى ، ولبثتُ واجماً لا أنبِس ، فتنظر إلىَّ « تهانى » وقد رابَها أمرى ، ثم تَهُزُّنى فى شدَّة ، وهى تقول : أَفِقْ . . . ماذا جَرَى لك ؟

— لا شىء !

— لقد خَبَا حُبُّك لى . . .

فتبدو على فمى ابتسامة كابية ، وأقولُ فى غير اكتراث :

حبِّى لكِ على حالِه . . .

فتردّ علىّ بقولها : صارِحْنى . . . إنكَ تكرَهُنِى !

— أقسمُ لكِ .

وأجدُ لسانى قد اعْتُقِلَ ، وريقى قد نَضَب ، فأنظر إلى « تهانى » وقد ملكها النشيج ، ولكنى أحسّ كأنى مُقَيَّد لا أستطيع البَراحَ من مكانى ، لأكفكفَ دمعَها الهامِى !

٢٠

صَحَوْتُ صبحَ يوم يَؤُزُّ سمعى نُواحٌ وعَوِيل . . .

واستبانَ لى أن أرجاء البيت كله تتجاوب بهذه الأصوات الباكية .

فقفزتُ من مضجعى وقلبى يَرْجُف ، وخرجت عادياً ، فرأيتُ « أمَّ خضير » تعترض طريقى وهى تضرِب صدرها ، ناعيةً إلىَّ أخى .

فَجَمَدَتْ قدماى فى موقفى ، واسترسلتْ المرأةُ تذكُر أن أخى وُجِدَ فى فراشه مَيِّتاً لا حَرَاكَ به ، فقلتُ لها متلعثما :

كيف ؟ لقد لمحتُه بعينَىْ رأسى البارحةَ فى حجرةِ « مودَّة هانم » يجالسها ويتحدَّث إليها ، موفورَ العافية !

— جاء أجلُه يا بُنَيَّ !

وتركتُ المرأة ماضياً إلى مَخْدَعِ أخى ، فوجدتُ البـاب يتجمَّع عليه الخَدم فى ضجة وتصايح ، فشققتُ لى بينهم طريقا ، ودخلتُ الحجرة ، فألفيتُ « مودَّة هانم » بجانب السرير تنتحب ، وشاهدتُ أخى ممدَّداً مُسَجًّى ، فطفرَ الدمعُ من مآقِيّ ، وتقدمتُ من مكانه أحسِر عن رأسه المُلاءةَ البيضاء . فظهر وجهُه شديد الِامتقاع ، بالغ النحول . ورأيتُنى آخُذ بيده ، فأطبَعُ عليها قُبْلَةَ وَدَاع ، قبلةً حانية يتمثَّلُ فيها الندم والِاستغفار !

وجلستُ بجوار « مودَّة هانم » صامتاً ، مطأطئَ الرأس ، أسبَح فى ذِكْرَيَاتِ الأمس ، وأخيلَةِ الغد .

وأحيَيْنا ليالىَ المأتَم ، وأخذ المنزلُ يستردُّ مألوفَ أحواله من قبل ، وازدادتْ أرمَلَةُ أخى من عزلة واعتكاف ، فكنتُ أقصِد إليها أقضى معها أطولَ الأوقات ، محاولا ما وَسِعَنى أن أبثَّ فى نفسها رَوْحَ العَزاء والسَّلْوَى .

ولقد كان أكثرُ حديثها يدورُ حولَ أخى ، حولَ ذِكْرَيَاتِه وسوالف أحداثِه ، فكانت تُطْنِب فى الإشادة به ، وفى التمدُّح بخصاله ، وفى

الرجوع على نفسها باللائمة، إذْ أساءتْ فَهْمَ مقاصده، وتقديرَ الملابسات التى أحاطتْ به .

وكثيراً ما كانتْ تؤكِّد أن طِيبَةَ نفسه وسلامةَ طَوِيَّته أمر لا يَرْقَى إليه شكّ ، وهذه الطِّيبة والسلامة هى التى وَرَّطَتْه فى مأزق تلك الفتاة اللَّعُوب ، تلك الأفعى التى تَقْطُرُ سُمّا . . .

وفى إحدى جلساتنا رَنَتْ إلىّ ، وهى تسترسل فى الحديث عن مآثر أخى ، وقالتْ :

لا تحسَبَنَّ يا « سامى » أن أخاك كان يطوى لك بغضا . . . إنه كان بك شفيقا ، وعلى هنائك حريصا . لقد طالما كشف لى عن خَبِيئَة نفسه نحوك، فعرفتُ مبلغَ عطفه عليك، وبِرِّه بك. فأما ما كنتَ تشهده من ظاهرِ جفوته ، فذلك طبعُه الذى لم يكن له عنه مَحِيص .

ونهضتْ تتحامل على نفسها ، وأخذتْ بيدى ، وهى تقول :

تعالَ معى ، فقد حانَ الوقتُ الذى أُطلعكَ فيه على سرّ يتعلق بك .

وسارتْ بى إلى خِزانة فى ركن من الحجرة ، وفتحتْها ، وأخرجتْ منها صُندوقا كشفتْ عنه الغطاء ، فإذا هو يحوى غوالىَ الطُّرَفِ والألطاف . وقالت لى وهى تُرِينى إياها واحدةً واحدة :

تلك من نصيبكَ يا « سامى » . . . إنها وَصِيَّةُ أخيك إلىّ أن أحفظها ، لتكون لك ولعروسك معك .

وسكتتْ قليلا ، ثم استأنفتْ تقول :

كان أخوك أرْغَبَ ما يكون فى أن يختارَ لك زوجاً تليقُ بك ، زوجاً من أشرف البيوتات ، تكونُ لك شريكة العمر ، فتسعدُ بها طولَ الحياة !

٢١

ظَلِلْتُ حليفَ البيت أياما ، على صدرى يَجْثُمُ عِبْءٌ فادح ، وفى رأسى معركة حامية تصطرع فيها أشتاتُ الخواطر والذكْريات ، وأمام عينى طيفُ أخى مسجًّى على سرير الموت ، وأنا راكع ألْثَم يُمْناه .

ليت أخى يُبْعَثُ الآن لحظةً واحدة ، لأبثَّه ذاتَ نفسى ، وأجاهرَه بما أشعر به من ندم ، وأستغفره مما كان يساور خواطرى نحوَه من نزعات الشرّ .

ليتَه يُبْعَثُ الآن لحظةً واحدة ، أسمعُ فيها من فمه كلمةَ الرضا والغفران !

ما أحوجَنى إلى نَسْمَةٍ من الراحة والاطمئنان تَرِفُّ على ضميرى المكروب ...

ووجدتُنى كلما ذكرتُ « تهانى » لاحقنى شعورُ اشمئزاز وامتعاض ، فلا أستطيعُ أن أتصوَّرَ أنى مُلاقِيها يوما ، وأنى مستأنفٌ معها أىَّ علاقة من علاقات الوُدِّ مُباحاً أو غيرَ مباح !

ولما طال عنها مَغِيبى ، أخذتْ تبعَثُ بالرسل تِبَاعاً يحملون كتبَها إلىَّ ، فكنتُ أقرأ بعضها بادئَ بدء ، وأنا أبتسم فى مرارة وألم ، ثم أصبحتُ لا أتسلَّمها إلَّا لأمزِّقَها فى بلادةٍ وإهمال .

وحان يوم أخلدتْ فيه « تهانى » إلى اليأس منى ، فكفَّتْ رسائلَها عنى ، وانقضتْ على ذلك أسابيعُ لا يطرأُ علىَّ من أخبارها شىء قلَّ أو كثر ، ولا تحدِّثنى نفسى بأن أسأل عنها أحداً من قريب أو بعيد .

ورانَ على البيت طابع أقْتَمُ عابسٌ يزيده مرضُ أرملة أخى من قتامة وعبوس ، فقد أقعدتْها العلة أشهراً تلوَ أشهر ، وهى تتداعَى وتضمحلّ ، دانيةً من القضاء المحتوم .

وتلقيتُ نعيَهاذاتَ ليلة ، فملأتْ نفسى حسرةٌ مكبوتة ، وأحسَسْتُ وأنا أشيِّعها إلى مثواها الأخير أنى أشيِّع مَلاذَ طمأنينتى ، وأفقِدُ يَنْبُوعا من الحنوِّ كان لى عذباً سائغاً .

وخلتْ لى الدار ، فبقيتُ فيها فرداً أحسُّ بأنهـا قاع صفصف يَصْفِر فيه الخراب . فإذا جَنَّ الليل ، وأَوَيْتُ إلى مَخْدَعى ، دَهَمَتْنِى وساوسُ وأوهام ، ودهانى رُعْب يَشِيعُ فى نفسى ، ويُطيل أرَقِى ، فلا أتمالك إلا أن أدعوَ « أم خضير » إلى المَبِيت فى حجرتى ، تردُّ عنى غائلة الوحشة والانفراد .

ولبثتُ زمناً أحيا فى ذلك البيت العَبُوس ، وأعانى ما يبعثُه فى نفسى من ذكريات أليمة أحملُها على كاهلى هموماً ثِقَالًا .

ويوماً كنتُ أتردَّد فى مسالك الحديقة ، فشهدتُ « العيوطى » مقبلا علىَّ ، وجعل يكرِّر على مسمعى أحاديثَه التى يعالج بها أن يسرِّىَ عنى . ثم أمسكَ عن الكلام لحظات ، وحدَّق فى وجهى ، وهو يقول : لماذا أنت مسترسل فى هـذه الحياة الكئيبة ؟ . . . تعالَ الليلةَ نتفرجْ قليلا . . . لدىَّ شىء ممتع أريدُ أن أُطْرِفَكَ به !

... عاودتُ حياةَ اللهو والعبث ، بعد أن فطمتُ نفسى عنها طوال الشهور . وأصبحَ هذا « العيوطى » يتولَّى لى تمهيدَ السبيل ، بعد أن أمسَى من رُوَّادِه العُتَاة !

واسترعَى انتباهى ما عَرا ذلك القَزَم العظيمَ من تغيّر ، فلقد تضلَّع بعد هُزَال ، وانبسطتْ جلدةُ وجهه بعد أن كانت تَعِيث فيها الأخاديد

واعتلى بهامته فى مِشْيَتِه يزهو ويختال ، وارتدى ثيابَه منتقاةً ساطعةَ الألوان ، وحَلَّى أصابعَه بالخواتيم تَبْرُق فيها كبارُ الفصوص .

وطالما لمحتُه فى المَشْرَبِ القائم على رأسِ الشارع ، يجتذب أنفاس « النارجيلة » فى تنفُّخ واعتداد .

ولبث « العيوطى » يَرْسُم لى خُطَةَ الجولات الليلية بضعة أشهر ، وأنا مسترسل فى هذا اللون من المتعة ، كأنى فى زورقٍ طليقٍ يدفَعُ به التيَّار ، دون أن يكونَ منى ما يعوقُ سيره ، أو يدير دفَّتَه يَمْنَةً أو يَسْرَة .

وفى إحدى تلك السهرات الهائمة ، وجدتُ «العيوطى» يجوس بى خلال الحىِّ الذى يقوم فيه منزل « الحاجة فاطمة » ، فخطر ببالى أن أقصِده ، وكنتُ قد انقطعتُ عن زيارته منذ أمد بعيد ، منذ انقطعتْ أسباب التواصُلِ بينى وبين صديقى « الزغبى » و « خيرى » ، فلم أَعُدْ أعرف لهما من أثر .

وسَرعان مَا بلغتُ الدار ، فإذا هى هى : بناء عتيق يتكاثفُ عليه البِلَى . فمثلتُ هنيهةً قُبالتَه أسرِّح فيه الطرف ، وانبعثتْ فى خاطرى ذكرى اليومِ الذى عرفت فيه بابَه أولَ مرة . . . وتشابكتْ

الخواطر ، وتداعتْ الذكريات ، فإذا أنا أتصفَّح أحداثَ أيامِ الصبا في خَطَفات بارقة .

وأخذتُ أدقّ الباب بذلك الأسلوب المعهود لأهلِ تلك الدار ، فما هى إلا أن أطلّ الوجهُ المألوف من الطاق ، وما هى إلا أن صَرَّ البــاب يتزحزح ، وما هى إلا أن بدتْ ذُبالة الشمعة تُجاهد أن تجنّبَنا عقباتِ الطريق ، وما هى إلا أن بلغتْ أسماعَنا جَلَبةُ المعازف وأهازيجُ الغِناء ...

واحتوتنا أخيراً تلك القاعةُ الفسيحةُ فيها أجناسٌ من خلق الله ، يتجلّى فى جانبٍ منها عرشُ « الحاجة فاطمة » وهى تعمُر أركانه بادنةً متلفعةً بخِمارها الأبيض الناصع فى مَهابة وجلال .

وما إن رأتنى قادماً عليها ، حتى ردَّدتْ كلماتِها الخالدة :

ما شاء الله . . . ما شاء الله !

ثم ما عتمتْ أن نادَتْ غلامَها قائلة :

انظرْ ماذا يطلبُ ضيفُنا « البك » .

وأطالتْ فى وجهى نظرَها تقول :

ماذا ألهاكَ عنا ؟... طالتْ غيبتك ، وحَرَمْتنا أنسك !

وتنازعنا الأحاديثَ بيننا ، على حينٍ كانت « الحاجة فاطمة » تجتذب أنفاسَ « النارجيلة » فى نشوة واستمتاع .

وبعد قليل نهضتُ إلى سِرْبٍ من الغوانى أجالسُهنّ ، وأقارعهنّ كؤوس الشراب ، وانبعثَ غيرَ بعيدٍ صوتٌ ما كدتُ أسمعُه حتى اهتزّتْ أوصالى ، فتطلعتُ أتعرّف : لِمَنِ الصوت ؟ فواجهتُ امرأةً تبارِحُ إحدى الحُجَر ، فوجدتُنى لا أملك إلا أن أنهضَ صَوْبَها ، وقلبى يَرْجُف ، وتَبَيَّنَتْنِى على الفور ، وأحسستُ بأنها تُوشِك أن تُصْعَق ، ولكنها ما لبثتْ أن تمالكتْ ، وأطلقتْ من فمها ضحكة عالية مفتعَلة ، وسمعتُها تقول فى صوتٍ أبحَّ :

أنتَ هنا يا « سامى » ؟ . . .

وتدانيتُ من « تهانى » صامتاً تعتصرُ الحسرةُ قلبى ، ثم أخذتُ بيدها ألاطفها ، وراعَنِى ما لَحِقَها من تغيّر : عين غائرة زادها التكحُّل من بشاعة ، ووجه شاحب حارتْ فى أمره ضروب الطلاء والمساحيق ، وثوب شَفِيف يحاول بما فيه من برقشة رخيصة ملوّنة أن يَدُلَّ على تَرَفٍ مكذوب . وَزَكَمَتْنِى هَبَّةٌ من ريح الخمر كانت تنبعث منها فى حِدَّة واشتداد .

وقادتنى « تهانى » إلى حجرتها ، فألفيتُها أمشاجا مُهَوَّشة من

ثياب وأثاث ومتاع ، مغمورةً بأخلاط من الروائح متنافرةٍ تبعث على الغَثَيان .

وقالتْ لى وهى تجتلبُ ابتسامة كريهة :

مالك تنظر إلى الحجرة هذه النظرات ؟ ألا تَرُوقُك ؟

— جميلة !

فارتفعتْ ضحكتُها ، وهى تقول : أعترف لكَ بأنها أقلُّ جمالا من مَنْظَرتنا القديمة ... مَنْظَرتنا التى قَضَيْنا فيها أيامَنا الحُلْوة !

ثم رأيتُها تُقْبِل علىّ قائلة فى تحنُّن :

ألا تذكُر أيامَنا الخوالى ؟ ألا تذكُر ؟

— عهدٌ مَضَى يا « تهانى » !

— هذا شأنُ الرجال . . . لا يبقَى لهم عهد ، ولا يدومُ لهم وفاء !

— أكان ممكناً أن تظلَّ علاقتُنا لا ينقطعُ لها أَمَد ؟

ورأيتُ وجهها يتقلَّص ، وإذا هى تقول متشامخة مزهوّة :

لا تحسَبَنَّ أنى أريدُك على شىء ... إن عِلْيَةَ القوم يخطُبون ودِّى فَوْجاً بعد فوج . . .

واندفعتْ تؤكد هذا المعنَى بألوان من التعبير ، وأشارتْ إلى

ما حولها من حُطام المتاع ، وهى تقول :

انظر إلى هـذا كله . . . إنه هـدايا الأصدقاء والخلاّن !

وبينما هى فى حَمِيَّة وحماسة تُطْنِب وتُشِيد ، وتُبْدِئ وتُعِيد ، رأيتها تنفجر دَفْعَةً واحدة فى بكاء مَرِير ، وارتمتْ على صدرى متشبثة بى ، فلاطفتُها مُشفقا ، ولـكنى أحسستُ بوطأة جَسَدِها علىّ ، كأنها ثِقْلٌ من الهم لا قِبَلَ لى باحتماله ، فذهبتُ بها إلى المُتَّكَإ ، وأجلستُها بجوارى ، وهى فى بكائها تتمادَى ، وأنا لا أفتأ أُواسِيها جَهْدِى .

وقامتْ إلى مِنضدة الزينـة ، تسوّى من شعرها وتتعطّر ، ثم أفرغتْ كأساً من الخمر فى فمها ، وأترعتْ كأسا عادتْ بها إلىّ وهى تقول : ما أحلَى اللقاء بعد طول بِعاد . . . ما أجملَ أن نتهزَ هـذه الفرصة لنستعيدَ حياة المتعة والبهجة والمِراح !

فأخذتُ الـكأس من يدها ، ووضعتُها جانبـا ، لم أقربْ منها جُرْعة . ورأيتُ « تهانى » تَهْبِطُ علىّ تقبّلنى قبلةً شعرتُ كأنها لَدْغَة ثعبان . فزحزحتُها عنى فى رِفق ، وقلت وأنا أنتزع الـكلمات انتزاعا :

أشكر لك لطفَكِ يا « تهانى » . . .

— ألستَ تحبّنِى يا « سامى » ؟

— وهل فى ذلك شكّ ؟

ونهضتُ من ساعتى ، وأنا أتابعُ قولى :

سأزورك فى فرصة قريبة ... قريبة جدًّا .

وهممتُ بالخروج من الباب ، ولكنى وجدتُنى أقفُ لحظةً أُخْرِجُ فيها من جيبى ما تيسَّر من المال ، وما لبثتُ أن تركتُه أمامَها على مِنضدة الزينة ، ومَرَقتُ من الحجرة ماضياً إلى الطريق ، عجلانَ الخطا ، كأنى أفرُّ من الجحيم ...

ولما كنتُ على رأس الشارع ، ألقيتُ على بيتِ « الحاجة فاطمة » نظرةً كانت وَدَاعاً إلى الأبَد !

٢٢

دارت بى حياةُ اللهو فى معمعانها بين خمر ونساء ، وانقلبَ يومى رأساً على عَقِب ، فأصبح نهارى نوما وخمولا ، وأمسَى ليلِى سهرا وعربدة !

وأدركتْنى ذَهْلة عن أمرى ، فكنتُ فى ذلك التَّيَّار الجارف ، لا أُبالِى إلى أىِّ مصير أنا مَسُوق .

ويوماً دخل علىَّ « العيوطى » وأنا فى مَخْدَعى قُبَيْلَ الظهر ، وبيده بِطاقة كبيرة مزخرَفَة ، وهو يقول وفمه تملؤه ابتسامة ضخمة :

هذه بُشْرَى خير يا سيدى . . . هاكَ دعوةَ فرحٍ جاءكَ بها البريدُ الساعةَ !

فتناولتُ البِطاقة وأنا أقلِّبها بين يدىّ ، ثم فضضتُ غِلافها ، وجعلتُ أقرأ ، ثم رفعتُ صوتى بجملة الختام ، مواجهاً « العيوطى » قائلا : والعاقبة عندكم فى المسرات .

فصاح قائلا : ومتى نَحْظَى بذلك الفرح ؟

— أتريد أن ترحَل إلى الصعيد من أجل عُرْس ؟

— حفلات الأفراح جديرة أن نرحَلَ من أجلها إلى آخر الدنيا . . .

— إذن فأَعِدَّ نفسَك للسفر بعدَ غدٍ .

ونهضتُ من فراشى ، والبطاقة بين يدى ، أعيدُ قراءتها ، يعلو فمى ابتسام .

ثم دنوتُ من « العيوطى » أضرب كتفَه قائلا :

أتعلمُ مَن الداعى ؟

— لا يعلم الغيبَ إلا الله !

— أحدُ أقرانى فى المدرسة . . . انقطعتْ بيننا الصلةُ منذ سنين طِوال !

ثم أخـذتُ أذْرَعُ الحجرةَ ، وأنا أهمهم : « خيرى » . . . « خيرى » . . . تُرَى ماذا أخطرَ اسمى ببالِه بعد هذه الغيبة الممدودة ؟ ها هو ذا يبنى بيتاً وينشىء أسرة . من ؟ ذلك الصبىُّ الذى لم يكن يُحْسِنُ إلا قَرْضَ أظفاره . . . لِلّهِ فى خَلْقِه شئون !

وأبرقتُ إلى « خيرى » أُعْلمه بموعد قدومى عليه ، وأقلَّنى القطار ، أنا و « العيوطى » فى مَدخَل الليل ، فبلغْنا محطةَ الوصول قُبَيْلَ السَّحَر ، وكان فى استقبالنـا جَمْع من الأعوان والأتباع ، يحملون المصابيح ، ويغمروننا بالحفاوة متهللين متصايحين .

واحتوتْنا مركبة سارتْ بنا تَحُفُّ بهـا المطايا عليها المشاعلُ تَفْسَحُ لنا الطريق .

وأخذ من نفسى ذلك الرَّكْب الفخم ، فملتُ على « العيوطى » منتشيا أقول له :

ما أشبهَ ركبَنا هذا بموكب العُرْس . لك أن تَحْسُبَ نفسَك عَرُوسا !

وانطلقتْ المركبةُ تَشُقُّ غَبَشَ الليـل ، والطبيعةُ من حولى بالغةُ الهدوء ، وأنسام السَّحَر الرطبة تصافح وجهى فتبعث فِىَّ انتعاشاً وبهجة ،

وتثير فى نفسى الشعورَ بأنى قد انتقلتُ إلى دنيا جديدة لا عهدَ لى بها من قبل .

وانسرحَ بى الفكر فى آفاق رِحاب من الأخيلة والخواطر ، وعلى الرغم من بُعْدِ الشُّقَّة ، وعناء الطريق ، فإنى لم أستشعرْ شيئاً من جهد أو مَلالة . وكنتُ أتبيَّن نور الفجر ، وهو يُولَدُ خيطا أبيض ، ثم لايلبثُ أن ينتشر فى عُرْضِ الأفق لَمّاحا يحمل إلى الكون رسالةَ اليومِ الجديد . . .

وأقبَلْنا على الدار ، تتجلى بما عليها من أضواء ساطعة ، كأنما تَمُدُّ فى عمر الليل ، وتستهزئُ بِمَطْلَعِ الفجر !

وما كدتُ أبرح المركبة حتى وجدتُنى بين ذراعين تلتفّان علىّ ، والقُبُلات تتناثر على وجهى يَمْنَة ويَسْرة ، وكلماتُ الترحيب تتوالَى وتتكرَّر ، وإذا أنا آخُذُ بيد « خيرى » أهزّها فى تشوق وتودد ، قائلا :

مبارَكٌ لك الزواج . ذلك هو اليومُ الذى كنا نتمنّاه . . . أن نراكَ فى فرحك ، وأن نسعدَ بك ، وأن . . .

فقاطعنى « خيرى » يومىء إلى شخص بجانبه ، وهو يقول :

دَعْ عنك هذا الكلام ، وانظر . . . أتعرفُ مَنْ ذاك ؟

فنظرتُ أتعرَّفُه ، فألفيتُنى أمام رجل عَرِيض المنكبين ، مجنَّح الشاربين ، يرتدى الجلبابَ الصُّوفىَّ السابغ ، فوقفتُ أتفرَّسُ فيه لحظة ، وقلت : أممكنٌ هذا ؟

فما لبثَ الرجل أن صاحَ بى :

أنَسِيتَ « الزغبى » يا وَلَدُ يا « سامى » ؟

وما هى إلا أن وجدتُنى فى زوبعة من ترحيبه بى ، وإقبالِه علىَّ ، واحتضانه إياى ، وكأنى عُود من أعواد القصب دارتْ عليهِ مِعْصَرَة عاتيـة !

وسِرْتُ بين « الزغبى » و « خيرى » ندخُل الدار ، والنـاسُ حوالينا زَرافات ، فرأيت « العيوطى » تنشقّ عنه الأرض أمامنا يَفْسَح الطريق ، ويقول عالى الصوت ، متطاولا بقامته : ما أحلَى اجتماعَ الشمل بين الأحباب ، وَلَتَحْيَى الأفراح والليالى الملاح !

واحتوتنا مَنْظَرَة الضيوف ، وجلستُ مع صديقَىْ صِبَاىَ نتطارحُ الأحاديث ونتذاكرُ تصاريفَ الزمن ، فعلمتُ بأن « خيرى » الآنَ قد تَمَوَّلَ وأثْرَى ، وصارتْ له ضَيْعةٌ يحسن تدبيرها وتثميرها . فأما « الزغبى » فأمسَى من ملوك التجارة فى الحبوب من قمح وعَدَس وفُول ، وقد تزوج وأعقبَ . وكِلَا الصديقَيْن يقيم فى الصعيد ، وكلاهما على مَقْرَبَةٍ

من صاحبه ، وهما يتبادلان المؤازرةَ والعَوْن ، وينعمان بحياة هادئة طيبة في طريق مستقيم . . .

وفجأةً رأيتُ « الزغبي » يميل عليَّ قائلا :

وأنتَ يا « سامي » . . . ماذا فعل اللهُ بك ؟

فخفضتُ من بصري ، وغَصِصْتُ بريقي ، وعَيِيتُ عن الجواب ، فلكَزَني بيده مداعباً يقول :

ماذا وراءك ؟ هَلَّا أخبرتَنا بشأنك ؟

فرفعتُ بصري إليه ساهماً أهمهم : حياتي على ما هي عليه !

وأنقذني مما أنا فيه من حَرَج قدومُ أحدِ أعوان البيت ، وهو يحمل طفلا ما زال في عينيه خَدَر النوم ، والطفل يتصايح طالباً أباه ، فنهض « الزغبي » يتلقاه ، ويعود به مطيِّباً خاطره ، مربِّتاً كَتِفَه ، وما هي إلا أن دفع به إليَّ وهو يقول له : اذهبْ فقبلْ يدَ عمك يا ولد . .

وانبرى « الزغبي » يُفيضُ في الحديث عن طفله وما يبديه من نشاط ، وما يأتي به من مشاغبات ، فقلت له :

الولد سِرُّ أبيه . . . ومن يشابه أبَهُ فما ظلم !

وضَجَجنا بالضحك جميعاً .

ولبثَ الطفل بين يدي ، أحدِّق فيه ، وأنا أستمع إلى حديث أبيه .

وسَنَح ببالى خاطر مفاجئ ، فقلتُ أناجى نفسى :

ماذا كان يبلغ طفلى الآنَ من العمر ، لو قُدِّرَ أن يكون لى طفل ؟

ونَجَمَتْ على الفور فى خاطرى صورةُ « فتحية » ووجهُها الوديع تكسوه مَسْحةُ اليأس ، وعينُها تتحيَّر فيها الدموع !

فعاجلتْنى انتفاضة تفطَّر لها قلبى من تحسُّر والتياع ، وظَلِلْتُ غيرَ قليل أعانى الكمد ، ولكنى ما زلتُ بنفسى حتى تمالكتُ ، خَشْيَةَ أن أُفسدَ على صاحبىّ ما يستمرئانه من مُتعة وصفاء .

وكان أكبرَ ما جَرىَ فى تلك الزيارة مَوْكِبُ الزِّفافَ ، فقد أُعِدَّتْ فى العشيَّة مركبة زُيِّنَتْ بالأزاهر ، وأحيطت بالرايات والشرائط أشكالا وألواناً ، وجلس فيها العروس ، وأنا عن اليمين و « الزغبى » عن الشمال ، وسارت بنا تَطُوفُ البلدة على أضواء المشاعل والشموع ، فى جَوْقَةٍ من المنشدين وحَمَلَة المعازف ، من حولهم حُشُود من الأهل والصحب ، وجموع من سكان البلدة يتراقصون ويَطْرَبُون .

وفَرَغْنا من الطَّواف فى منتصَفِ الليل ، فما إن حَلَلْنا الدارَ حتى استقبلتْنا عواصف ثائرة من الأغاريد والأهازيج تنطلق بها حناجرُ النساء .

ولما أَزِفَ موعدُ التقاء العروسين ، ألفيتُ « خيرى » مهتاجاً يمسح ما تصبَّب من عرقه ، وانحنَى على أظفاره يَقْرِضُها فى تتابُع ...

يومان اثنان قضيتُهما فى ضِيَافَةِ ذلك العُرْس، نَعِمْتُ فيهما بالكثير من بواعث اللطف والإيناس ، ولَقِيتُ فيهما صنوفاً من الحفاوات والمجاملات ، وتعددتْ فيهما أمام عينى ضروبٌ طريفة من التسلية والابتهاج، ولكننى أعترف بأن مُتْعَتى فى هذين اليومين لم تَخْلُصْ من الشوائب ، فقد كانت تعتادُنى أطياف من كآبة واغتمام ، فأجدُنى أَهِيمُ فى أودية من الأفكار تُشَرِّد بى كل مُشَرَّد ...

وكان قفولى من الصعيد فى قِطارِ الصباح ، فقضيتُ ساعاتِ السفر الطوال منهوكَ الجسد ، خامدَ الأوصال ، أغفو بين فترة وأخرى ، ولطالما خُيِّلَ إلىَّ أننى أسمع صوت « الزغبى » يسائلنى :

ماذا فعل الله بك ؟ هَلاَّ أخبرتَنا بشأنك ؟ !

ثم يتراءى لى شَبَح طفله ، وهو بين يدىَّ أطيل فيه النظر ، وأنا أحدِّث نفسى :

ماذا كان يبلغُ طفلى الآنَ من العمر ، لو قُدِّر أن يكون لى طفل ؟ !

وفصلتُ عن القطار آيباً إلى دارى ، ووطأةُ الكآبة والاغتمام تتناقلُ علىّ ، وتعصِف بى .

وصُبْحاً نزلتُ إلى الحديقة أروِّح فيها عن نفسى ، وساقتنى خطاى إلى أقصاها ، فإذا أنا أرى الجبَّ . . . ووقفتُ حِيَالَه أحدِّق فيه ، ثم خطوتُ أدخلُه ، فاعترضتنى أطباقُ الظلمة ، وثارت علىَّ رِيح عفِنة ولكنى على الرغم من ذلك كله أقدَمْتُ ، حتى بلغتُ الفجوة ، ومكثتُ فوقها أُنعِمُ النظرَ على ضوء عُودٍ من الثِّقاب أشعلتُه ، ثم رجعتُ من فورى أعجَب من أمرى : كيف قضيتُ دهراً أتهيَّبُ ذلك المكانَ المهجورَ الذى ليس فيه ما يوجب رَهَباً ولا خشية ؟

وذكرتُ موقفَ « فتحية » من هذا الجُبِّ منذ أعوام ، إذ لم تخشَ منه شيئاً ، وإذ أقدمتْ تقتحمه وتكشِف ما فيه ، فلما ذكرتُ ذلك هزَّتنى إلى « فتحية » عاطفة من تشوُّق وحنين !

وأبَى شَبَح « فتحية » إلا أن يلازمَنى يومى كله ، يتنقَّل معى حيثما حللتُ ... شَبَحُها فى ذلك المظهر الوديع الذى يتوضَّح فيه الحزن والقنوط !

واعتملتْ فى نفسى مشاعر وإحساسات ظلت تحتدّ وتشتدّ ، فناديتُ « العيوطى » أحدِّثه ، وانتهينا إلى أمر مقرَّر ، رسمنا له خُطَّته ، وأعددنا عُدَّته ...

٢٣

وبكرةَ غادرتُ الدارَ ، يَقفُو أثرِى « العيوطى » إلى « المحطة » .

لقد آليتُ على نفسى أن ألقَى « فتحية » حيث تكون ، مهما يصادفنى من عراقيل .

وبدأتُ البحثَ والتحرِّى ذاهباً إلى الضَّيْعة التى انتقلتْ إليها « فتحيةُ » أوَّلا عند زوجِها شيخِ الخفر . . .

ومن ثمَّةَ استقيتُ مختلِفَ المعلومات والأنباء ، وواصلتُ السفر أسأل وأتقصَّى ، حتى بلغتُ القريةَ التى انتهى إليها مَصِيرُ « فتحية » آخرَ الأمر .

ولما دخلتُ القريةَ استهديتُ إلى بيتِ شيخ الخفر ، وحثثتُ إليه الخطا ، وقلبى سريعُ الخفوق . فلما قاربتُ البيت ، لمحتُ على مَصْطبَتِهِ امرأةً مقوَّسَةَ الظهر ، باديةَ الشَّيْبِ ، مستغرقةً فى تفكير . فدنوتُ منها أحدِّق فيها وأتفحصها ، وبغتةً صحتُ :

السيدة « هاجر » . . .

ورفعتْ المرأةُ رأسَها ، وقد اختلج جُسْمَانُها اختلاجةَ تطلُّع ، وهممتْ تقول : من ؟ !

فقلت : ألا تعرفينى ؟ أنا « سامى » . . .

وأقبلتُ عليها أصافحُها فى تحنُّن وتأثُّر ، وأنا أقول :

منذُ الصباح وأنا أبحث . . . أين هى ؟ أين « فتحية » ؟

فما أسرع أن أجهشَتْ بالبكاء ، وأخذتْ بيدى تُجْلِسُنى بجوارها وتقصُّ علىَّ ، مختنقةَ الصوت ، شَرِقَةً بالدمع ، ما جَرَى من أحداث وما كان من مصاير . . .

وشددتُ على يدِها ، وقلتُ لها راجفَ النبرات : أماتَتْ ؟ أحقًّا ؟

وتخاذلتْ أوصالى ، وغَشِيَنا صَمْتُ برهة .

ثم أَنْبَهَنى صوت رفيع من جَوْفِ الدار ، ينادى :

جَدَّتى ... جَدَّتى !

فسموتُ برأسى أتبيَّن ، وقد ثارتْ نفسى ، فرأيتُ طفلا يَدْرُج من الباب ، قاصداً السيدةَ « هاجر » وما إن وقع بصرُه علىَّ حتى رمقنى فى خوف وحَذَر ، وأسرع إلى حِضْن جَدَّته ، يحتمِى به .

وسمعتُ السيدة « هاجر » تقول :

هـذا طفلها . . . انظرْ إليه يا « سامى » . . . طالما كانتْ « فتحيةُ » تُحَدثنى أنه صورةٌ منك !

فاتقدتْ عيناى ، أتفرَّس فى وجه الطفل ، و بسطتُ له ذراعى ، فانكمش عنى ، فلاطفتْهُ السيدة « هاجر » وقالت له :

هذا الأفندى يحبك ، فلا تَخَفْ منه يا « فتحى » . . . سيُحضر لك لُعَباً وحَلْوَى !

فالتفتَ الطفلُ ينظرُ إلىَّ ، مستريباً بى ، وفى عينيه استطلاع وفُضول . فقلت له : لقد أحضرتُ لكَ أشياء لطيفة . . . انظر . . .

وأخرجتُ له ساعتى أُريه إياها ، فانجذبَ نحوى واهنَ الخطا ، ومدَّ يده إلى الساعة يقلِّبها و يتفحَّصها ، فَأَعَنْتُه على أن يضعَها على أذنِه ليسمعَ دقَّاتها ، فأشرقتْ أسارِيرُه ، وفرقعتْ ضحكاتُه .

وجعلتُ أتأمَّل قَسِمَاتِ وجهه ، فكأنى كنتُ أقرأُ فيها سطوراً من ذِكْرَيَاتٍ حافلة .

وكنتُ كلما حدَّقت فى عينيه الصغيرتين عَرَتْنِى نَشْوة ، فأخذتُه بين ذراعىَّ ، وطبعتُ على خدِّه قبلة حانية ، ثم وسَّدْتُ رأسَه صدرى ، وجعلتُ أداعبُ شعره .

ومرتْ بى هُنيهة ، وأنا هائم فى أحلام ، و بدأتُ أستشعرُ طُمَأْنِينَةً وسكينة ، و إذا الدنيا من حولى كأنما قد انجابَ عنها قتامُها ، وأخذتْ تُشْرِق وتبتسم .

لكأنى كنتُ من حياتى فى مَتَاهَةٍ أضرب فى وَعْثَائِها على غيرِ هُدًى ، وإذا أنا بعدَ لَأْيٍ يتوضَّح لى طريقُ الخلاص . . .

وتراءى لى أنى أسيرُ فى ذلك الطريق ، آخـذاً بيد ولدى ، مستقيمَ الخَطْو ، يحدُونى أملٌ بَسَّام ، ويشيعُ فى نفسى أمنٌ وسلام !

شيخ الزاوية

على الشاطىء الأيمنِ من تُرْعة « الخليليـة » قريباً من بلدة « المحاريق » ، تقوم زاوية للصـلاة ، هيِّنةُ المظهَر ، صغيرة المساحة ، ولـكنها على الرغم من ذلك لا تخلو من القُصَّادِ فى الصلوات الخمس كل يوم ، ولا سيما صلاةُ الجمعة من كل أسبوع ، إذ يتوافد النـاس عليها زَرَافاتٍ من كل فَجّ ، حتى تضيقَ بهم رُقْعتها ، فلا تملك جموعهم إلا أن يتخذوا من حولها مُصَلًّى فى الطريق . . .

وإن زاوية « الخليليـة » لَتزداد قُصَّاداً على مرّ الأيام ، طوعا لما يتمتع به إمامها « الشيخ نعيم » من شهرة واسعة ، وصِيتٍ بعيد . فلقد تسامع النـاس فى أحشاء القرى المجاورة ، والبلاد القاصية ، بهذا الإمام الجليل ، وتناقلوا الحـديث فى رَوْعةِ مواعظه ، وقوة صلاحه ، وأجمَعُوا على أن دعوتَه ليس بينها و بين السماء حجاب . فـكانوا حِرَاصاً على أن يغتنموا بركةَ الِائتمام به ، والصلاة معه ، وأن يتزوَّدوا مما يلقيه عليهم

من خُطَبه الرنّانة زاداً طيباً للحياتين : العاجلة والآجلة ...

وكان بعضُ من تحتويهم الزاوية فى صلاة الجمعة ، يَقْدَمون إليها فى الضحوة الباكرة ، متجشّمين مشقة الرِّحلة من أقاصى الريف ، متنافسين فى اتخاذ مجالسهم عن كَثَب من المِنْبَر ، لا يريدون بذلك الصلاة فحسب ، ولا تستهويهم خطبةُ الجمعة وحدَها ، وإنما هم مَرْضَى تعاصَتْ عليهم السبل ، ولم تُجْدِ فى شفائهم الحِيَل ، فعَجِلوا إلى شيخ الزاوية يرتقبون منزلَه من المنبر عقبَ الخطبة ، ليأخُذُوا بحاشية جُبَّته ، ويمسَحُوا بها الوجوه ، فإذا قُضِيَتْ الصلاةُ نهضوا إليه يلثمون يده ، ويلتمسون دعاءه أن يفرِّجَ الله عنهم الكَرْب ، ويزيل السقام ... وإن دعاء هذا الولىّ الصالح فى هذه الساعةِ المباركة لَقَمِينٌ أن يظفَر بالإستجابة والقبول .

كان « الشيخ نعيم » رجلًا مَهيبَ الطلعة ، تتجلّى على أساريره علائم الإيمان العميق ، وكان بائنَ الطول ، ضامرَ الجسد ، حَسَنَ الملامح ، تَزِينُه لحية مهذَّبة وَخَطَها الشَّيب ، فكساها صِبْغة الوقار ... وهو ذو عينين نجلاوين ينبعث منهما تَيَّار قوىّ يَبْهَر الأبصار ، ويَنْفُذُ إلى القلوب .

ولقد وهب الرجل حياتَه للتعبُّد ، وقصر عمله على إبلاغ رسالة

الدِّين ، وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم . . . فإذا تكلم تناثرتْ على فَمِه آيات القرآن وأحاديث الرسول وأمثال الصالحين ، وإذا خطا فى الطريق وَجَدْتَه مطأطئا فوق سُبْحَته يغمغم بأذكاره أو يناجى ربَّه ، وإذا اعتلى منبره يوم الجمعة تدفَّق لسانُه بفصيح الكلام، وتدفَّع صوتُه قوىَّ الجَرْس ، فلا يلبث بيانُه أن يَلْمِسَ شَغَافَ الأفئدة ، يَرِفّ عليها حيناً برداً وسلاماً ، وينصَبّ عليها تارةً ناراً موقدةً ، وفى يده سيفُه الخشبىّ يلوِّح به ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، فتهتزّ الزاوية بمن حَوَتْ ، كأنما أصابها زِلْزال ، وما هى إلا أن ترى الناس شاخصةً أبصارُهم ، خاشعةً أجسادُهم ، كأنهم قد مَسَّهم سِحْر . . .

ولم يكن الرجل يعرف فى دنياه مَثَابَةً غير البيت والزاوية . . . فهو إمَّا فى بيته يصيبُ طعامه ومَنَامَه ، وإما فى زاويته قائماً يصلِّى أو جالسا يتحلَّقُ حولَه نفر يطلبون عنده الموعظة الحسنة ، أو يرفعون إليه ظُلامةَ بعضِهم من بعض ، أو يلتمسون منه حكم الشرع فيما يَعْرِض لهم من شئون العيش وأحداثِ الحياة . . .

وإن أهلَ بلدة « المحاريق » ليذكرون « للشيخ نعيم » أنه منذ فُتُوَّةِ سِنِّه ، دَمِثُ الشمائل ، طيِّبُ المعاشَرة ، تتوضّح فيه سكينة النفس ولِين الكلام . . . وأنه أسْبَقُ الناس إلى صلاة ، وأحرَصُهم

على أداء فرض ونافلة ، وأكثرهم وَلَعاً بالتفقُّه فى الشريعة ، والتمكُّن فى آداب الدين . . . فلا غَرْوَ أن يقيموه إماماً للزاوية ، ولم يستكمل عامَه الخامسَ والعشرين، وها هو ذا قد مضى له أكثرُ من عشرين عاماً فى مَنْصِبه الكريم ، يزداد على الأيام من وَرَعٍ وتقوى ، ويزدادُ له الناسُ من حبٍّ وإكبار . . .

و « الشيخ نعيم » يؤمن بأنه من السلالة النبوية المطهَّرة، وأن الله قد اختاره هادياً ومرشداً لهذا البلد وما حولَه ، وكثيراً ما رأى نفسه فى المنام ، وقد حَفَّت به ملائكة أبرار ، ورفرفت فوقَ رأسه رايات خُضْر ، وطالما ترامَى إلى أذنه فى جوف الليل صوتُ الهاتف يُهِيبُ به أن ينبعثَ لهداية الخَلْق ، وأن يكون فى عَوْنِ الناس ، فإذا هو ينتفِضُ اهتياجاً ، وإذا هو ينهَض فيتوضأ ، ولا يفتأ يتهجَّد . . . وكان لذلك يستجيب ناشطاً حين يُدْعَى للسَّهَرِ بجانب مريض يقرأ على رأسه التعاويذ ، ولا يقصِّر فى تيسير حاجات الفقراء والمساكين ما استطاع ... فقد يَنْزِل عن طعامه لجائع يقصِده ، وقد تراه فى الحقول يُعين أحدَ الفلاحين فى الحرث والرىّ ، حِسْبَةً لوجه الله .

وربما بات « الشيخ نعيم » طاوىَ البطن ، لا يجد ما يتبلَّغ به ، وهو على ذلك منشرح الصدر ، يغمُره الرضا . وربما أدركه الشتاء وهو

لا يملك من الغطاء إلا حُبَّتَه الباليـة ، فيشعُر فى قرارة نفسه بدِفء عظيم . . .

وكذلك عاش الرجل فى الحياة ، حالماً فى يقظته وفى نومه ، تتراءى له أخيلة رائعة يتمثَّل بها مَقَامَه عند ربه ، ونعيمَه فى جنة الخلد ، جزاء لمهمته الجليلة فى هذه الدنيا . . . تلك المهمةِ التى يختصُّ الله بها أولياءه الأطهار .

فأما أُسْرَةُ الرجل التى تَعْمُر بيته ، وإن شئتَ قلتَ : كُوخَه ، فلم تكن إلا زوجةً بَنَى بها منـذ فاتحةِ شبابه ، وهى تَـكْبُره بسنوات قلائل ، وقد تزوجتْ قبلَه ، ثم تُوُفِّىَ عنها زوجُها ، فضمَّها الشيخ إليه رحمةً بها ، وظل معها فى عِيشَةٍ هادئة راضيـة ، خلالَ تلك السنين الطوال .

وبينما « الشيخ نعيم » فى مُنْصَرَفه من الزاوية بعد صلاة الجمعة ، وهو مائلٌ على سُبْحَته يناجيها ، إذ انتهى إلى سمعـه صوت متخشِّع يناديه ، فالتفت يتبيَّنُ الأمر ، فألفى رجلا يَتْبَعُه فى خُطا متعثرة ، فعطف عليه الشيخ يسأله : مَن أنتَ ؟

— أنا « عبد التواب » .

— مِنْ أيّ البلاد ؟

— من الكَفْر المجاور . . .

— ما الخبرَ ؟

وأقبل عليه الرجلُ آخذاً بِكُمّ جبته يقبله ويُنَدّيه بدمعه ، فقال له الشيخ : هَوِّن عليك يا بنى ، وقُصَّ علىّ ما تشكو . . .

فانتبذ به الرجل ناحيــة ، وطَفِقَ يخبره بأنه أوْقَعَ على زوجه الطَلَقَاتِ الثلاثَ ، ولكنه يلتمسُ إلى ردّها سبيلا .

فأخذ الشيخ يسائله ، ليستجلىَ أمرَ هـذا الطلاق ، فلما علم الأمرَ على وجهه ، قال له : لا سبيل إلى معاشرتِكَ إيّاها إلا أن يتزوجها رجلٌ غيرك . . . فإن طلَّقها كانتْ لكَ من بعده حلالا .

فسأله الرجلُ فى تحسُّر : ألاَ من سبيلٍ غيرِ تلك السبيل ؟

فقال الشيخ : هذا شَرْعُ اللهِ يا بُنَىّ !

فنَكَّسَ الرجلُ رأسَه لحظةً وقد استَيْأَسَ ، ثم تهيَّأَ للانصراف ، فأخذ الشيخُ طريقه ، واستأنفَ الإقبالَ على سُبْحَتِه ، يُنَقِّلُها بين أصابعه . . .

وفى أصيل الغد ، كان « الشيخ نعيم » يغادرُ الزاوية ، وقد فَرَغَ

من صلاة العصر ، فرأى الرجل الذى تَبِعَه أمسِ قد عاد إليه ، وما لبث أن خلا به فى ناحية ، فجعل الرجل يَفْرُكُ يديه ، وقد مال برأسه ، ثم تحدَّث إلى الشيخ فى شأن زوجته المطلَّقة ، وهو يقول : لقد حَتَمْتَ ياسيدَنا الشيخ أن تتزوجَ المرأة رجلاً غيرى ، حتى تَحِلَّ لى من بعده .

فقال الشيخ : أَجَلْ يا بُنَىَّ . . . ما من ذلك بُدّ !

فازداد الرجل مَيْلًا برأسه ، وقال مجمجماً كأنه يتحدَّث إلى نفسه : هل يقبَلُ سيدُنا الشيخ أن يكونَ ذلك الزوج . . . خدمةً لوجهِ الله ؟

وعَقَدَتْ البَغْتَةُ لسانَ الشيخ ، فلم يُحِرْ جواباً ، وانحنى على سُبْحَتِه يورى بها حيرته واضطرابه . . . فاستأنف الرجلُ قولَه مفصِحاً عن مَطْلَبِه ، مُلْحِفاً فى الرجاء والاستعطاف . . . وما زال فى إلحافه ، حتى قال الشيخ : أَمْهِلْنى يوماً . . . سأستخير اللهَ يا « عبد التواب » . فإن كَشَفَتْ الاستخارة عن خيرٍ أجبتُكَ إلى مطلبك ، وإلا فمُحَالٌ أن يكونَ ما تريد . . . جِئْنِى غَداً يا بُنَىَّ ، والله ولىّ التوفيق !

وما إن انتهى الشيخُ من جوابه ، حتى هَمَّ بالانصراف ، فاستوقفه الرجل لحظةً ، ومضَى عنه ، ثم رجع إليه ومعه امرأة فى عَصْرِ الشباب ، طيبةُ القسمات ، بيضاء نَضْرَة . . . فتقدمتْ من الشيخ فى خَجَل

وخَفَرَ ، فقال لها الرجل : قَبِّلِي يدَ الشيخ .

ثم قال للشيخ : هاهى ذى زوجتى المُطَلَّقَة ...

وما كادت المرأةُ تنحنى على يدِ الشيخ ، حتى جذبَ يدَه ، وفرطتْ منه نظرةٌ إليها ، فلاقتْ نظرتَها ، فغضَّ الشيخ من بصره ، وقال للرجل : امْضِ بزوجتك .

فقبَّل « عبدُ التواب » يدَ الشيخ ، داعياً له أن يُجْزِلَ اللهُ ثوابَه .

وأخذ الشيخُ سَمْتَه إلى داره ، وئيدَ الخطا ، مُسْبَل العينين ، مَحْنِيَّ الهامة ، غارقاً فى تسبيحاتٍ عميقة .

وقضى الشيخُ ليلة هانئة زخَرتْ بالبهيج من الأحلام ، إذ تراءتْ له فى رياضِ الجنة حُور عين ، وبينهنَّ من تُشْبِه فى ملامحها تلك الشابَّةَ التى أقبلتْ عليه فى عصرِ يومه الفائتِ على استحياء !

وصحا الشيخُ من نومه ، قُبَيْلَ الفجر ، نشيطاً محبوراً . فلمَّا أدَّى فريضةَ الصبح ، استخارَ اللهَ فى شأن ذلك الزواج . . . فلاح له من الدلائل ما جعله يطمئنُّ إلى القيامِ بهذه المهمة دون حَرَج أو تَثْرِيب .

وجاءه « عَبْدُ التواب » فى موعِده ، يستجلى نَبَأَ الاستخارة ، فأخبره الشيخُ بقبوله ، فاغتبط الرجلُ بذلك ، وانطلق إلى دار مطلَّقته يدعوها إلى إجراء عقدِ الزواجِ بشيخ الزاوية . . .

وما أسْرَعَ أن انتهتْ مهمةُ الزواج والطلاق على خيرِ وجـه ، ولـكن زوجةَ « عبد التواب » خَلَّفتْ بعد رحيلها أثراً جميلًا فى نفسِ الشيخ الإمام ، فلقد شَعَر بعاطفة تستيقظُ فى قَرَارَةِ نفسه ، عاطفةٍ خفيَّة غامضة ، ولـكنها تَسْرِى فى أوصاله ، فلا يملك معها قَرَاراً ...

وكان طيفُ تلك المرأة يَطْرُق الشيخَ فى مَنَامِه ، فيتشكَّل له فى صورة حُورِيَّةٍ ناصعةِ البياض تغازِلُه وتضاحكه ، فيقطعَ ليله طَرُوباً جَذْلَانَ ، ولـكنه إذ يستيقظ يعاجـله انقباض ويأس ، ويقضى وقتَه مهموماً مكروبَ الفؤاد ...

وإنه ليسائل نفسه : ما خَطْبُ هذه الأحلام ؟

أتراها رَمْزاً لحـكمة خَفِيَتْ عليـه ؟

أم تراها نزغةٌ من نزغات الشيطان ؟

ولم يكن يُسْعِفُه فى حيرته وقلقه إلا صوتُ الهـاتف يقول له فى غَفَواته التى تُوَاتيه أثناء النهار :

طِبْ نفساً يا « نعيم » ... فليس عليكَ من الشيطان سُلْطَان ... سِرْ فى طريقك الذى سَنَنْتَه لنفسِك ، واعملِ الخير ما استطعتَ إليه سبيلا !

فيتشَهَّد الشيخ تشهُّدَ الحمـدِ لله ، وما أسرع أن يستنيرَ وجهُه

بِشْراً وارتياحاً ، ثم يقضى بقيةَ يومه على أحسنِ حال .

وتناقلَ الناسُ فى بلدة « المحاريق » وما جاورها من البلدان أن الشيخَ الإمام تزوجَ امرأةَ « عبد التواب » لِتَحِلَّ لزوجِها من بعده ... فتوارد عليه أولئك الذين طَلَّقوا زوجاتهم ثلاثا ، ثم نَدِموا على ما فعلوا ... تواردوا عليه يبتغونَ عنده مثلَ ما ابتغَى ذلك الرجل ، تفريجاً لتلك الضِّيقَة ، ووَصْلًا لحبل المعاشرة ، وهم مطمئنون إلى قيام الشيخ بهذا الأمر ، طَيِّبَةً أنفسُهُمْ به . فكان الشيخُ لا يُخَيِّبُ لهم هذا السُّؤل ، ولا يَرُدُّ تلك الطِّلْبَة ، إذ كان قد رَسَخَ فى اعتقاده أنه يفعل ذلك ابتغاءَ مَرْضاةِ الله ، وتيسيراً على عباده ... وكيف يَزْهَد فى صنيعٍ يلتئم به شَمْلُ الأُسَر ، وتتوافرُ بين الأزواج أسبابُ الوِفاق ؟ !

وترادفتْ الأنهر على شيخ الزاوية ، وهو لا يَفْرُغ من زَوْجِيَّة حتى تستقبلَه زَوْجِيَّة أخرى ... فانقلبتْ لياليه أعراساً متوالية ، واصطبغتْ نفسُه بِصِبغة جديدة لم يكنْ له بها عَهْد .

لقد أصبح يَمْشِى فى الطريق معتدلَ القامة ، مرفوعَ الهامة ، يختلسُ النَّظرَ إلى المِلَاح .

ولقد عُنِىَ بلحيته أيَّما عناية ، فشذَّبها أحسنَ تشذيب ، وعالج مَشِيبَها بالخِضَاب أجملَ علاج ...

ولقد عَمَد إلى عمامته ، فبناها مهندَمَة الوضع ، مستويةَ الطَّيَّات ، وأَلِفَ أن يتعطَّر عملًا بالسُّنَّة ، وخَلَطَ حديثَه بالنُّكات اللطيفة ، والضحكات الخفيفة ، يقيناً منه بأنَّ المؤمنَ طَرُوب .

فأما حِدَّته فى الخطابة فقد خَفَّتْ ، حتى غدا صوتُه عذباً رقيقاً ...

وأما سيفُه الخشبىّ فقد استكان فى يدِه ، فلم يَعُدْ يلوِّح به ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال . . .

ويوماً وقف الشيخ أمام الدار يحاورُ بعضَ النسوة الذاهبات إلى التُّرْعَة يملأن الجِرَار ، فقَدِمَ على الدار شابّ فى صُحْبَتِه امرأة ، وكان ذلك الشابُّ مطربَشا من أهل البنادر ، وهو زَرِىُّ الهيئة ، نحيف الجسم ، يَبِينُ على وجهه أنه من نُفَايَاتِ المجتمع ، ومن السادِرِين الذين لا تقوم بأمثالِهم دعائم البيوت ، ولا تتحقَّقُ بهم هناءةُ الأُسَر .

وما إن وقعتْ عينُ الشابّ على شيخ الزاوية ، حتى اقترب منه قائلًا : خَدَّامُك « تهامى » يا سيدنا .

فابتسم الشيخ وهو يقول :

العفو يا افندى . . . العفو . . . ما مسألتك ؟

فأجمل الشابّ قصته ، فقد طلق امرأته الطلقاتِ الثلاثَ ، فأبتْ عليه زوجتُه أن تعاشرَه إلا بعدَ فتوى الفقهاء . . . وقد أفتاه أولئك الفقهاء بأنها لا تَحِلُّ له إلا إن تزوجتْ رجلًا غيره . . . فهو يعرِض على شيخِ الزاوية أن يكونَ ذلك الزوجَ المنشود .

وتفضّل الشيخ ، فأعلن قبولَه للنهوض بهذه المهمّة ، وانصرف الشابّ ، تاركاً امرأتَه « صابحة » فى كَنَفِ الشيخ إلى حين .

وكانت « صابحة » فتاةً موفورةَ الحظّ من الوسامة ، مترنحةَ الأعطاف من المَرَح . عاشرتْ الشيخَ بضعةَ أيام ، فخلّتْ من قلبه أكرمَ مَحَلّ ، حتى لقد حَرَص على أن يقضِىَ معها أطولَ وقته ، فجعل يتخلّف عن الزاوية فى بعضِ الصلوات ، ويقصِدُ الأسواقَ هنا وهنالك ، لينتقىَ « لصابحة » حُلِيًّا وملابس ، ويَجْلُبَ لها فاكهةً وحلوى . . .

ووجدتْ « صابحةُ » نفسَها تتقلّب فى أعطافِ عيش ناعمٍ هنىّ ، فى كفالة رجل رَضِىّ النفس مِطْواع ، لا كزوجها الشابّ الصُّعلوك الذى كانتْ معه . . . رجل له شمائل لم تألَفْها من قبلُ ، لا كشمائلِ زوجها

الذى لم يكن يُحسنُ إلا الشتمَ والإهانة وسوء المعاملة ... فأسبغتْ على الشيخ حنانها ورضاها ، وجعلت تتفقّدُه إذا غاب ، وتتعهّده إذا حَضَر ... وشعرتْ للحياة الزوجيــة بعاطفةٍ لم تشعُرْ بها قبلَ اليومِ ، فــكأنها وُلدتْ منذ الآنَ زوجةً بحق !

وفى فَجْرِ يوم دخل « الشيخ نعيم » على زوجتِه القــديمة المُقيمةِ يخبرها بأنه رأى فى منامِه رؤيا صادقة ، كأنها فَلَقُ الصبح ... وتعبير تلك الرُّؤْيا أن أمَّها مريضةٌ على شَفا خطر ، فعليها أن تتداركَ الأمر ، فتنتقلَ إليها فى بلدها البعيد ، قبل أن يُحمّ القضاء . وسيلحق بها بعدَ يوم أو يومين ، يدبّر فيهما أمره .

ولم تمضِ ساعاتٌ معدودة حتى كانت المرأةُ قد تجهّزتْ للرحيل .

وانصرمتْ أيام ...

وهَبطَ البلدة « تهامى » قاصداً بيتَ الشيخ الإمام ، فلما نمى إلى الشيخ مَقدَمُه اكفهرّ وجهه ، وخرج إلى الشابّ يرغبُ إليه فى إمهال الزوجةِ أياماً تستوفِى بها المُدّةَ المقرَّرة .

فانقلب الشابّ إلى بلده ، يملأ نفسَه الاغتمام .

وفى الغــداةِ بعثَ الشيخُ رسولَه إلى الزاوية للإخبـارِ بمرضه وبحاجته إلى الاعتكاف فى الدارِ بضعةَ أيام .

ولَبِثَ الشيخُ بجانب « صابحة » يَتَمَلَّى وسامتَها ، ويستمتع بصُحْبَتِها ، وقد يُمْسِكُ بها مهتاجاً بين ذراعيه ، كأنما يريد أن يمنعَها من الإفلات ، أو يحميَها ممن يَبْغِى استلابَها منه . . . ثم ينكبُّ على يديها تقبيلا ، والدمعُ من عينيه ينهمر !

وفى غَفْوَةٍ من غَفَواته هتف به الهاتفُ قائلا : لا تُفرِّطْ يا « نعيم » فى « صابحة » . . . لقد وهبَك اللهُ إياها إنقاذاً لها من براثن ذلك الذئب الجائع . . . إنها أهلٌ لك ، وأنت أهلٌ لها !

وحضر « تهامى » يطالبُ الشيخَ الإمام بأن يردَّ إليه امرأته ، واحتَدَّ فى حديثه معه ، فخرج الشيخ من حِلْمِه ، وصاح بالشاب :

ألم أقل لك لا تَعْجَل ؟ إن الله مع الصابرين !

ولكن « تهامى » لم يفهَمْ ماذا يَعْنِى الشيخ بالصبر ، وقد لبثتْ المرأةُ عنده أكثرَ من أسبوعين ، وكان الأَجَلُ بضعةَ أيام .

إلا أنه اضْطُرَّ إلى امتلاك غضبه ، فترك الشيخَ مُوَاعِداً إياه أن يعودَ بعد أسبوع ، ليستردَّ امرأته .

وانقضَى الأسبوع ، والتقَى الشابُّ والشيخُ بباب الزاوية ، يومَ الجمعة ، عَقِبَ الصلاة . . . فبادره الشيخ قائلا :

أَحَضَرْتَ أيضا ؟ ما هذه الجَسَارة ؟ !

فعَجِبَ « تهامى » مما يسمَع ، وظلَّ هُنَيْهَةً لا يتكلم . ثم اندفع صائحاً يقول للشيخ :

أيُّنا الجسُور ؟ لقد جئتُكَ أُطَالِبُ بردِّ زوجتى إلىّ .

فتراجَعَ الشيخُ خُطُوَات ، وتجمَّع الناسُ يتساءلون : ما الخبر ؟

وَسَرْعانَ ما شعر الشيخُ بالحَمِيَّةِ تَدِبُّ فى أوصاله ، فالتهب وجهُه ، واعتدلتْ قامته ، وانبعثَ من عينيه شُواظ يخترق الحُجُب .

ولبِث الشيخُ يحدِّق فى عين الشمس ، ويُرْهِفُ السمعَ لصوت الهاتف ، مُهيباً به أن يحتفظَ « بصابحة » التى وهبهُ اللهُ إيَّاها ، إنقاذاً لها من بَرَاثن ذلك الذئب الجائع .

وثَمَّةَ انتفض « الشيخ نعيم » انتفاضةَ بِشْرٍ وارتياح ، وصاح من أعماقِ قلبه قائلا : ياعبادَ الله ! . . . ياعبادَ الله !

فتجمَّع الناس من هنا وهنالك ، وأحاطُوا بالشيخ ، وأنصتوا له ، وقد خشعتْ منهم القلوب ، وتعلقتْ الأنفاس .

فقال الشيخ جَهْوَرِىَّ الصوت : أتَثِقُونَ بى أم أنتم لا تثقون ؟

فصاحوا صوتاً واحداً : إنا بك واثقون !

فاستأنف قائلا : لقد هدانى الله إلى انقاذِ مُطَلَّقَةِ هـذا الشابّ ، وحمايتِها من شرِّه . . . فهل أَعْصِى أمرَ الله ؟

فقالوا جميعاً : كلا ، بل تَمْضِى على هُدًى من الله !

فابتلع الشيخُ ريقَه وهو يقول : لقد وهبتُ نفسى لصالح المؤمنين والمؤمنات . . . وليس فى مقدورى أن أتنحَّى عن حق الله علىّ ، ولو كان فى ذلك حَتْفِى . . . فهل أنا فى ذلك أُلَام ؟

فأجابوه : لا لَوْمَ عليك !

فقال لهم وهو يشير إلى الشابّ : إذن كُفُّوا عنِّى هذا !

وما كاد الشيخ يُتِمُّ جملتَه ، حتى أَحْدَقَ الناس « بتهامى » وأبعدوه عن الزاوية ، وما زالوا به حتى فارقَ البلدة ، وهم يُنْذِرُونَه بالويل إن عاد .

وسار « الشيخ نعيم » ميمِّماً دارَه ، فى جَمْعٍ من النـاس ، وهو يتهادَى فى مِشْيَتِه ، تَحُفُّ به المهابة والجلال . . .

كَبْشُ الفِدَاء

لم يترك « عبدُ الخالق » فراشَه إلا فى الضحوة العالية . . . وكان أبوه قد بارح المنزل مبكراً ، كما هو شأنُه كلَّ يوم .

وأخذ « عبد الخالق » يتناول فَطُوره ، وهو ثائر متسخِّط ، وما لبث أن صَدَرَ عن المائدة مهرولا إلى المَطْهَى ، فما إن واجه الجاريةَ « مبروكة » حتى تطاول عليها بالشَّتْم والضرب ، لأنها لم تَحْبِس القطَّ « فلفل » ، إذ لمح شَبَحَه أثناء تناوُله الطعام .

ورجع « عبد الخالق » إلى رَدْهة البيت ، فألفَى أمه على مألوف عادتِها تجلس على وِسادة ، مختمرةً بخِمارها الأبيض الناصع ، وهى ترتشفُ قهوةَ الصباح ، فأخذ مجلسَه حِيالَها صامتاً عَبُوسَ الأسارير ، ثم جعل يتنهَّد ويَزْفِرُ ، فأقبلتْ عليه أمُّه تلاطف رأسه ، وقالتْ له وهى تبتسم : إنى أَحْزِرُ ما يشغَل بالَك أيها الماكر !

فأجابها وهو يَنْأَى عنها بجانبه :

ولكنكِ تَأْبَيْنَ أن تعينينى على ما أريد . . . لقد استيقنتُ أنكِ لا تتوخَّيْنَ راحتى . . . لا تُضْمِرين لى حبًّا !

فطوقتْه بذراعها ، وهى تقول :

أتجرؤ أن تتفوَّه بمثلِ هذا القول يا جاحدَ الجميل ؟

— الأمر جَلِىّ . . . لو كنتِ تحبيننى لسعيتِ لى عند أبى حتى يُبْرِمَ الأمرَ الذى تعرفين !

فغمغمت الأمُّ ، وقد غَضَّتْ من بصرها :

ولكنك تَعْلَم يا « عبد الخالق » أن أباك . . .

وأمسكتْ عن الكلام ، متشاغلةً بطرف ثوبها تتحسَّسه ، فقال ابنها محتدَّ اللهجة : أَحْلِفُ لك إنكِ إذا لم تُقْنِعِى أبى اليومَ بإنجاز هذا الزواج ، فإنى أغادر البيت ، ثم لا تعرفينَ لى من أثر .

فَطَفِقَتْ الأم تحدِّق فى وجهِ ابنها بعينٍ قَلِقَةٍ حَيْرَى ، وهمهمتْ : أىَّ كلام هذا يا « عبد الخالق » ؟

— قولٌ فَصْل . . . إذا لم تنته مسألة الزواج اليومَ ، فهذا فراق بينى و بينك . . . سوف أريحُكم من وجهى ، وأُريح نفسى من هذا العيش الأَنْكَد !

فأخذت الأمّ بيد ابنها تَضْغَطها ، وهى تقول :

ما أقسى قلبَكَ يا بُنَيَّ . . . أيسوغ لك أن تفعلَ هذا ؟

فجذَب « عبـد الخالق » يدَه ، ولبِث يبعَث فيما أمامه نظراتٍ حامية . . .

ولاح شَبَح القط « فلفل » فى رأس الرَّدْهة يتمسَّح بالباب ، وهو قِطّ حالك السواد ، أملسُ الفَرْو ، كأنه قطعة من ليل بَهِيم ، يُضِىء فيها إشعاع مترجرِج يسترسلُ من فَصَّيْن ملوَّنَيْن ، هما عَيْناه .

فما كاد الفتى يَقَعُ بصره على ذلك الشَّبَحِ الطارئ ، حتى عَجِلَ إلى خُفٍّ كان على مَدِّ يده ، فرمىَ القطَّ به ، وهو يصيح :

لن تُفْلِتَ من يدى أيها القَذِر المشئوم !

فما أسرعَ أن قفز القطّ هاربا ، وهو يَمُوء بصوت بشِـع مُزْعِجِ النبرات .

ونهض « عبد الخالق » يتأهَّب للخروج ، فسألته أمّه فى ضراعة وتحنّن : إلى أينَ يا بُنَيَّ ؟

فصاح الفتى يجيبها بقوله : إلى جهنم . . . أتريدين أن تَحْبِسِينى فى البيت ، كالقط « فلفل » والجارية « مبروكة » ؟

— وهل منعتُكَ من الخروج يا بُنَيَّ ؟ . . . انصرفْ فابسُطْ نفسَك وتَنَزَّهْ .

— ليس فى مقدور أحد أن يمنعنى من ذلك . . . سأبسُط نفسى ، وسأتنزَّه . . . أما القطّ « فلفل » فأقسم بالله العظيم لَيَلْقَيَنَّ حَتْفَه على يدى . . . إنه يحيا فى هذا البيت يَرْتَع ويلعب ، كأنه أمير مُرَفَّه ، فأما أنا فأحيا فيه كأنى كلب ذليل !

— إنه قط أبيك يا « عبد الخالق » وأنت تعلم أنه أثير عنده ، حبيبٌ إليه . . .

فقال الفتى محتدَّ الصوت :

أبى ؟ أتلقَّبينه أباً ، وهو ذلك العانى المستبدُّ الغَشُوم ؟

فنظرتْ إليه أمه فى عَجَب وإشفاق ، وهى تقول خافضة الصوت :

أبهذا تصف أباك ؟ تَأَدَّبْ يا بُنَىَّ !

فبادرها بقوله : لا تتمادَىْ فى القول ، فتثيرى غضبى عليكِ .

فهمهمتْ الأمّ تقول : هداك الله يا « عبد الخالق » !

ومَثَل الفتى تُجاهَ المِرآة وهو يصلح من هِنْدامه ، ويعانِى أن يَفْتِلَ شاربَه الطَّرير ، وقد رَنَّح أعطافَه العُجْبُ بنفسه ، والتباهِى بِفُتُوَّتِه .

ولما أبلغتْه المرآةُ مأربَه ، استدارَ فى وقفته ، يقول لأمه فى لهجة الآمر : عَلَىَّ بـ « ريال » !

فتنهدت المرأة ، وتحركتْ يَمْنَة ويسرة ، ثم أخرجتْ له من تحت

الوسادة ما طلب . فما إن تناول «الريال» حتى ركض إلى السُّلَّم يهبط على درجاته فى قفزات متواصلة .

فلاحقه صوتُ أمه ، وهى تجأر قائلة : على مَهْلِكَ يا «عبدَ الخالق» الدِّهليز مظلم . . . خُذْ حِذْرَكَ يا بنى . . . حماك الله ونجّاك !

ظهر «عبد الخالق» فى الحارة ، وشرع يَخْطِرُ فى أرجائها ذُهوبا وَجَيْئَة ، وهو يتطلَّع إلى منزل «أم محمد» الدَّلَّالة .

وكان بين الفينة والفينة يبعَث من فمه صَفِيرا يحاكى به لَحْناً من الألحان الشائعة ، وهو يَعْبَث بسلسلة فى يده .

وبعد حين أَهَلَّت من منزل «أمِّ محمد» فتاة ضامرة تحتويها مُلاءة ، وقد تزينتْ زِينةً رَخِيصة ، وتأنقتْ أناقة وَضِيعة .

وما كاد «عبد الخالق» يراها ، حتى تقاصَرَتْ خُطَاه ، وتخايلتْ على وجهه بَسْمة وهَّاجة ، ثم أخذ يتنحنح ، فإذا بالفتاة تنفرط منها ضحكة رنَّانة ، وقد واصلتْ سَيْرَها ، كأنها غيرُ مَعْنِيَّة بأمر الفتى الهَيْمَانِ الطَّرُوب !

فخشَّ « عبد الخالق » خُطاه إليها ، حتى دنا منها ، وقال لها مُعابثا : إلى أين يذهب الغزال اللَّعُوب ؟

فكسرتْ له الفتاة عينَها ، وهى تقول فى مداعبة ودَلّ :

ما لَكَ وما لى ؟

— عَجَباً لكِ يا « فائقة » ... غداً يكون لى معك شأن أىّ شأن !

ثم أرسل سَعْلَة مديدة ، وأتبعها قولَه :

سينتهى الأمر عَمَّا قريب . . . كل شىء يسير وَفْقَ المرام .

فلم تُحِر الفتاة كلاما ، كأنما يَعْصِمها الخجل ، وواصل الفتى حديثه قائلا : إن هى إلا أيام ، ثم يَتِمُّ بيننا عَقْدُ الزواج .

وامتدَّت يده إلى يدها تضغَطها فى شَغَف ، فتكلفتْ الفتاةُ أن تَجْذِبَ يدَها ، وهى تقول :

احتشمْ يا « عبد الخالق » . . . ألا تخشَى أن يرانا أحد ؟

— مِمَّ أخشَى ؟ وهل فى هذا العمل ما يُعَاب ؟ ألم أقل لكِ إنكِ ستكونين لى زوجا ؟

فأجابته فى صوت لَيِّن المَكَاسِر : وهل تمَّ كل شىء ؟

فقال الفتى : ستزوركم أمِّى غداً لتخطبَكِ لى . . .

— وهل علم أبوكَ بالأمر ؟

— علم أَوْ لم يعلم . . . المسألة تتعلَّق بى .

فنكَّسَتْ الفتاةُ رأسها ، وقالت وهى تَعْبَث بأناملها :

أخشَى أن يَحُولَ أبوكَ بينَك وبينَ ما تريد .

فردَّ عليها فى عزَّة وكبرياء : هيهات له أن يفعل ذلك !

فألقتْ عليه نظرةَ أسف وخوف ، فاختلج الفتَى غيظاً ، ثم اندفع يقول لها فى لهجة حاسمة :

لا تحسُبِى حِسابا لغيرى . . . أمرى كلُّه فى يدى !

وكان الفتى والفتاة قد بلغا رأس الطريق العامّ ، فافترقا .

وركبتْ « فائقة » الترام ... فأما « عبد الخالق » فقد عَبَر الشارع وسار مطرقَ الرأس ، ضيقَ النفس ، يستبدُّ به التفكير .

وبينما هو فى مَسِيره ، إذْ شعَر بيد تلاطف كَتِفَه ، فانثنَى يتبيَّن الأمر ، فإذا بصاحبه « دسوق » يقول مفترّ الثغر :

ما هذه السَّحْنة المقلوبة يا « عبدَ الخالق » ؟ فى أىّ شىء تفكر ؟

— . . . لا شىء !

— مَنْ يراك على هذه الحال يكاد يُنكِرُكَ . . . عاشقٌ أنتَ أم مفارق ؟

— لا أنا عاشق ولا أنا مُفارق .

فأشرع « دسوق » إلى صاحبه نظراتٍ نفّاذة ، ثم قال له :

ما الجديدُ فى شأنِ البنت « فائقة » ؟

فوَجَمَ « عبدُ الخالق » لحَظات ، وأجاب ساهما :

دَعْنا من هـذا الموضوع .

— أأخَّرَ زواجَـكما تدبيرُ المال المطلوب ؟

— المال لايُعْوِزُنِى يا « دسوق » . والدتى تـكفّلُ لى كلَّ شىء . ولـكن . . .

— إذن ليس فى المسألة إلا أن يَرْضَى أبوكَ .

فخَفَضَ « عبد الخالق » رأسَه ، وأخـذ يدير سلسلته مهتاجَ الأعصاب .

واستأنف « دسوق » قوله : الحقَّ أن أباكَ جاوزَ الحدَّ . . . كن شجاعاً فى مخاطبته ، وافرِضْ رأيك . . . لم تَبْقَ طفلا !

فرفع « عبد الخالق » رأسَه ، وقد تضرمتْ عيناه ، وطَفِقَ يجمجم وهو حائر قَلِق .

فباغتَه صاحبه بقوله : أتعرِف من الذى يحرِّض أباكَ عليكَ ؟

— من ؟

— « الأسطى بيومى » الحلاّق . . .

فانطلقتْ من فم « عبد الخالق » صيحةُ حَنَق ، وهو يقول :

الوَغْد . . . الدنىء . . . لن يُفْلِتَ من يدى !

— ما قولك فى الترصُّدِ له الليلةَ ، وإشباعِه ضربًا ؟

— فكرة موفَّقة .

— سأجمع الصِّحَابَ هذا المَساء ، ثم ننتظره فى منقَطَع الطريق ، وهو فى مَآبِه إلى داره .

وتابع الصديقان سيرَهما ، وهما يتجاذبان الحديثَ فى تدبير الخُطَّة بصوت مخفوض .

وانقضى يومان لم يَفْتُرْ فيهما « عبد الخالق » عن محاصرة أمه ، والإلحاح عليها ، لكى يحملَها على أن تفاتحَ أباه فى شأنِ زواجه المنشود .

واضطُرَّتْ الأم أن تنصاعَ لرغبةِ الفتى ، فوعدتْه بأن تفاوضَ الليلةَ أباه .

وبينما كان الفتى وأمه جالسيْن على الوسائد بعد العشاء ، إذ تناهى إلى سمعهما صريرُ الباب ، وخَفْقُ القدم ... فَعَلِمَا مَنِ الطارق .

وتعالى صوت « محجوب افندى » يسبُّ الجاريةَ « مبروكة » لإهمالها تنظيفَ الدَّهليز .

فقالت الأمّ على ابنها هامسة :

يبدو على أبيك الليلةَ أنه ليس بصافى المِزَاج !

فعَقَّبَ عليها الفتى محتدَّ اللهجة :

لا يَعْنِينِي أن يكونَ صافىَ المِزاج أو لا يكون . . . لا بدَّ الليلةَ أن تنتهىَ مسألةُ الزواج !

وهنا كان « محجوب افندى » قد صَعِد الدَّرَج ، وهو يزمزم ويجمجم ، والقطّ « فلفل » يتمسَّح بثيابه ، فلما بلغ الرجلُ رَدْهَةَ البيت وقع بصرُه على ابنه « عبد الخالق » ، فأخذ يَحْدِجُه بنظراته ، وهو يحاول أن يتطاولَ بقامته القصيرة ، ويتنفَّخَ بجسمه المتضائل .

وصاح بالفتى قائلا :

كيف جَرُؤتَ أن تضربَ « الأسطى بيومى » يا وَلَد ؟

فأراد الفتى أن يتحدَّى سطوة أبيه ، وأن يغالبَ نظراتِه ، ولكن ما كادت أعينُهما تتلاقَى ، حتى كَسَر الفتى من بصرِه ، وقال مستكينَ الصوت : لم يحدُثْ ذلك والله العظيم !

— بُعْداً لك من كاذب أثيم . . . أَجِبْنِي : كيف جرؤتَ أن

تضرب « الأسطى بيومى » ؟ انطِقْ وإلا تركتُكَ فاقدَ النطق .

— أُقْسِم برأسك الغالى إنى برىء !

— لقد كنتَ فى عُصبة من الأشرار ، بينهم « دسوقى » ذلك الولد الفاجر الذى حرّمتُ عليك أن تكونَ لك به صلة . . . لقد تَرَصَّدْتُم « للأسطى بيومى » فى منتهَى الطريق .

— كَذَبَكَ من بلَّغَكَ يا أبى !

— اخْرَس يا ولد . . .فأنتَ الكذوب !

واقتربت الأمّ من زوجها ، على فمها ابتسامة ذليلة ، وقالت :

سَكِّن من رَوْعِكَ يا « محجوب افندى » . . . الولد جاهل لا يحسن الكلام . . . ربما كان مظلوما . . . تعالَ فاجلسْ أُهَيِّىءْ لك قَدَحاً من الشاى ، فأنتَ الآن محتاج إلى هدوء البال .

وتضاحكت الزوجة ، تعالج الترفيه عن الأب المُغْضَب . فنظر الرجل إليها نظرة استخفاف ، وقال لها :

لستُ أدرى ماذا تقصدين ؟ أتبغِينَ أن أُغْضِى على تلك الأعمال السيئة التى يقترفها ابنُكِ مع الناس ؟

فأجابته الأم : لستُ أريد منك أن تُغْضِى ، ولكن على رِسْلك ،

ولتكن حَليما . وليس « عبدُ الخالق » بأول ولد تنزلقُ قَدَمُه فى هذه الأعمال الصِّبْيانية .

— هكذا أنتِ تعمَلين على تهوينِ ما يرتكبه هذا الولد ، فتشجِّعينه على أن يفعلَ ما يَهْوَى . . .

فمالتْ الزوجة على كتف « محجوب أفندى » تلاطفه متخاضعةً متفننة فى تسكين غضبه ، وهى مسترسلة تقول :

أنتَ فى كلامك مُحِقّ . أنا التى أخطأت . ولكنك تعلم قلبَ الأم ... و « عبد الخالق » مهما يكن من أمره فتى طيِّب السريرة ، ولعل ما بلغك فى شأنه وِشايةٌ من أهل السوء ! . . . تعال اجلس ، وروِّقْ بالك . سأذهب لأصنعَ لك الشايَ بنفسى .

وهُرِعَتْ الأمّ إلى المَطْهَى ، و « عبد الخالق » يَتْبَعُ خُطاها .

وأخذ « محجوب أفندى » مجلسَه على الوسائد ، وانكفأ على سُبْحَتِه يداولُ حَبَّاتِها بين أصابعه .

ورجعت الزوجةُ تحمِل قَدَح الشاى المعطَّر ، وقدَّمتْه إلى الرجل ، وهى تقول فى تضاحُك :

أُقسم برأسك الغالى إنه ليس فى مصر كلِّها من يستطيع أن يصنَع قدحا من الشاى مثلَ هـذا القدح . . . اشربْه ، وطبْ نفساً به !

ونظرتْ إليه تستجديه البِشر والابتسام ، فَلَوَى عنها عُنُقَه ، وظل منكفئاً على سُبْحته .

ولاح فى أقصى الرَّدْهة « عبد الخالق » يستخبر الحال .

وعَمَّ الردْهة صَمْت مُطْبِق ، لم يكن يقطعهُ إلا صوتُ ارتشاف الشاى ، وبعضُ تنهدات تبعثُها الأم بين حين وحين ، وهى تبادل ابنَها النظر فى خُفْيَةٍ وحِذَار .

وبعد فترة مَدَّت المرأة يدها فى تلطّف ، تَدْلُكُ قدمَىْ زوجِها المكدود ، وقالت فى صوت متخافِت ، وبصر زائغ : لى عندكَ رجاء !

فأجابها الرجل ، وهو يَنْأَى عنها بجانبه : أىّ رجاء لك ؟

— عِدْنِى أوّلا أن تستجيب له .

— عجيب أمرُكِ . . . أخبرينى لأعرفَ ماذا تريدين ؟

فانكبَّت المرأة على ركبته تقبِّلُها مهتاجة ، وهى تقول :

اصنَعْ معروفا معى ، واستجبْ لرجائى .

فقال لها الرجل ، وهو يتباعد عنها :

أفْصِحى . . . أفْصِحى عما فى نفسك !

فرفعتْ إليه المرأة عينين خَضَّلَهُمَا الدمع ، وقالتْ فى صوت متقطِّع : أريد أن أفْرَحَ « بعبد الخالق » . . .

فحملق الرجلُ ، وقد أَزْهَرَتْ عيناه ، وقال :

تفرحين « بعبد الخالق » . . . بهذا الولدِ الخائب ؟ !

فتشبثتْ المرأةُ بثوبه تقول : اصنَعْ معروفاً معى . . . لا أطلبُ منكَ إلا كلمة القبول . . . واترك ما بَقِيَ أدبِّره بنفسى .

فلم يُحِرْ زوجُها من جواب ، وطَفِق يداعب حَبَّاتِ السُّبْحة بأصابعَ جَيَّاشة ، وواصلتْ الزوجةُ قولها فى لهجة استعطاف وتذلل :

أَشْتهى أن أرَى حفيداً لى . . . أتمتع به قبل أن تحينَ مَنِيَّتِى . . . أضمُّه إلى صدرى . . . يملأ البيتَ أنسا و بهجة !

فتنحنح « محجوب أفندى » وطال تنحنحه ، دون أن ينبِسَ .

ولما تمادَى الصمتُ بين الزوجين ، شَرعت المرأة تقول ، وهى ناكسة الرأس ، تَدْعَك إحدى يديها بالأخرى فى إلحاح :

إنها بنت يتيمة مسكينة . . . وأهلها من جيراننا ومعارفنا الذين اتصلوا بنا من عهد بعيد .

فصعَّد الرجل نظره وصَوَّبه ، وعلى فمه تتخايل بسمة استخفاف .

ثم قال :

أحْسَبُكِ تَعْنِينَ بنتَ « أم محمد » الدَّلَّالة . . . البنت التى تظهر فى الشارع بالأبيض والأحمر ، وتتعوَّج فى مشيتها مثلَ الراقصات !

فنظرتْ إليه زوجُهُ نظرة عتاب ، وقالت :

« فائقة » بنت « أم محمد » ... لا عيبَ فيها ... بنتٌ طيبة عاقلة !

— ما أحسنَ اختيارَك العظيم ... تبغين أن تخطُبى لِابنك إحدى بنات الشوارع ؟ ! ... أقسم بالله إن هذا الولد لن يرى يومَ هناءة وسعادة ، مادمتِ تساعدينه على هذا الشرّ .

فأحسّ « عبد الخالق » بغتةً بأن ناراً تتضرم فى رأسه ، وأن عينيه قد اكتستا صِبغة حمراء ، فصرخ وجسمه تزلزله رِعدة :

يمينا إنى لن أرى لحظة راحة ، مادمتَ أنتَ عقبةً فى طريقى !

فأنفَذَ « محجوب افندى » بصرَه إلى مكان ابنه ، وقد اختلط عليه الأمر ، لا يكاد يصدّق أن « عبد الخالق » يَعْنِيه بهذا المُنْكَر من القول .

ثم صاح : ماذا قلتَ يا كلب ؟

ولبثتْ الأم حَيْرَى ، تنقّل بصرها بين ابنها وزوجها ، وقد غَشِيَها شُحوب ، وسَرَى فى أوصالها تخاذُل وفتور .

وقالتْ لِابنها بصوت كأنه النشيج :

هذا عَيب منك يا « عبد الخالق » . إنّ مَن يُـكَلِّمُكَ أبوك !

فقال الفتى بصوت تتجاوبُ أصداؤه فى أرجاء الرَّدْهة :

لا أعرف من تُسَمِّينَه أبى !

وما عَتَّم أن التفتَ نحو أبيه يقول : سأتزوج « فائقة » . . . رَضِيتَ أو لم تَرْض . . . لم أَبْقَ طفلا حتى تتحكَّم فى أهوائى !

وفى هذه اللحظة دَرَج القط « فلفل » إلى الردهة حتى توسَّطها ، وكأنه أحسّ بأن غيوماً تتلبَّد فى جوّ المكان ، فجعل يُرَأْرِئُ بعينيه حولَه ، وقد ارتفع ذيلُه ، وانتفشَ شعره .

وَطفِق الرجل يتقلَّب على الوِسادة ، يحاول أن يمتلك زِمامَ موقفه ، وقال مهمهما : أين عصاى ؟ ايتونِى بها . . .

ثم نهض قائماً ، وهَمَّ بأن يأخذ طريقه إلى ناحية ابنه ، فأسرعتْ الأم تَحُول بين زوجها و بين الِانطلاق . ولكنها لم تُفْلِح ، وابتدأت المعركة بين الولد وأبيه ، فأقحمتْ الأم نفسها ، وتلقَّتْ أوفر الضربات ، وما زالت « بعبد الخالق » حتى نَحَّتْه إلى الباب ، تاركةً أباه يتابع زمجرته وهَدِيره .

وكان الولد يحاول الإفلاتَ من أمه ، ويُدِير بَصرَه يَمْنة ويَسْرة ، فالتقت عينُه بالقطّ « فلفل » ، وما هى إلا أن انكبَّ عليه ، وأمسك

به يُنْشِبُ أظفاره فى عنقه ، والقط يَعْوِى ، ويدفع عن نفسه بمخالبه وأنيابه . وخرج الولدُ به وهو على هذه الحال هائجًا مائجًا يَهْبِطُ الدَّرَج .

فاختلج الأب اختلاجة غيظ وحَنَق ، وهَمّ أن يَلْحَق بابنه ، ليستنقذَ قِطَّه الأَلُوف ، ولِيَشْأَرَ له . . . فوقفت الأم تعترض طريقَه ، وتقسم عليه ألاّ يخطو خطوة ، وهى تقول :

أَقْصِرِ الشر . . . احمَدِ الله على أن الأمر انتهَى عند هذا الحدّ !

فلبِثَ الأب يحاولُ الخروج ، والأم تردُّه ، على حينِ كان مُواء القط يتواصل ، كأنه أَنِينُ مُحْتَضَر . . .

ضَرْبُ الحَبِيب

المنزل الأخير فى « زُقاق المُحْتَسِب » بِحَيِّ « الحمزاوى » مَبْنًى عتيق ، تداعَتْ أركانُه ، وتخرَّبت جوانبه ، ولكن ما بَرِحَتْ بعض معالمه تنطق بما كان له من مكانة فى العصر القديم ، بين باذخات الدُّور والقصور . . .

ولقد شُيِّدَ المنزل يوم شُيِّد ليكون مُقَاماً مستقلاً لأسرة كريمة سَرِيَّة تغيرتْ بهـا الأحوال ، وتَحَيَّفَتْهَا الأحداث ، حتى اضْطُرَّتْ فى يومها الراهن أن تقنَع من المنزل بغُرُفَاتٍ فى طبقته العليا ، لكى يُتاحَ لها أن تؤجِّر سائر طبقاته وغرفاته لأشتات السُّكَّان ، فيكونَ لهـا من ذلك دَخْل تستعين به على أعباء العيش ، وتكاليف الحياة .

وليست هـذه الأسْرَةُ إلا زوجين محطَّمين عَلاهما الكِبَر ، وابناً لهما يُدْعَى « يُوسُف » فى شَرْخ الشباب ، يقطع مرحلة التعليم الثانوى .

وكان « يوسف » هذا يزهو بوسامته ، ويحتفِى بزينته ، لا تراه

فى المنزل إلا متخطِّرًا يتمثل فى نظراته الاعتزاز . وكيف لا يتعالى على بقيَّة السكان ، وهو يعرف أنه سليل الأمجاد من أصحاب هـذا البيت العتيق ؟

ومن بين سكان هذا المنزل أرْمَلَة تُدْعىٰ « أمّ حسن » تتكسَّب بحياكة الأثواب ، وتصيب منها رِزْقا حَسَنًا . وهى امرأة ليست موفورة الحظِّ من جمال المُحيَّا ، ولـكنها تبدو دائمـاً مُتَبَرِّجة مكتملة الزينة والتعطُّر ، تعرف من عينيها أنها من ذوات الصَّبابة اللواتى تَحْفِلُ حياتُهن بالمغامرات . . .

وهنالك فى الجانب الخرِب من المنزل حجرة متهدِّمة أشبهُ بالجُحْر ، تُؤْوِى جَدَّةً ضَرِيرة معها حفيدتُها « بدرية » . . . فتاة فى رَيِّق العمر ، تَرْهَقُها غَبَرة الفاقة والـكدّ ، ولـكنك تستشفُّ وراء ذلك القناع سِمَاتٍ من فتنة وحسن ، كما تأنَسُ ابتسامةَ القمر خلفَ غلائلِ الغيوم . . .

وكانت حياةُ هذه الفتاة نَهْبًا مُقَسَّمًا بين القيام على شئون جَدَّتها العجوز ، والتنقُّل فى مساكن المنزل أجيرةً تَخْدُم .

وغُدْوَةً صَعِدَتْ « بدرية » إلى الشُّقَّة التى يسكنها مُلاَّك الدار ، فما أسرع أن تجلَّى الفتى « يوسف » على عتبة الباب وهو متأهِّب للذهاب

إلى المدرسة . ولما رأى الفتاة قُبالتَه بشَّ لها ، وقال :

أهذه أنتِ يا « بدرية » ؟ . . . مصادَفَة حسنة . . . كانت أمى تَذْكُركِ الساعة .

— أطَلَبَتْنى هى ؟

— إنها ملازِمة الفراش ، منذُ البارحة ، وليس بجانبها من يكون لها عوناً .

— سَلَّمها الله .

وتحركتْ الفتاةُ أمام الباب تريد الدخول ، فاعترضَها الفتى يأخُذُ عليها الطريق ، وهو يبتسم فى مداعبة ، ويقول :

تقدَّمى . . . ماذا يبطىء بك ؟

فضرَّج الخجلُ وجهَ الفتاة ، وقالت متلعثمةً خافضةَ البصَر :

عجيبٌ أمرُكَ يا « يوسف افندى » . . . لِمَ هذه المعاكسة ؟

فجعل الفتى يهتزّ طروبَ النفس ، وأجابها فى صوت مُنَغَّم :

ألا تعرفين يا « بدرية » لماذا أعاكسك ؟

فاعتَلَتْ الفتاةُ برأسها ، فإذا هى تُلاقِى نظراتِ « يوسف » متلهِّبَةً عَطْشَى ، فزادها ذلك من حيرة واضطراب ، واغتنم الفتى تلك الفرصة ، فأهوَى عليها يغتصب منها قبلة شَيِّقة ، فانبعثت الفتاةُ ثائرةً تردُّ عنها

ذلك المقتحمَ الجرىء ، فدفعَتْه بكلتا يديهـا دفعةً أسقطَتْه ، وعَجِلَتْ إلى الباب . . .

ونهض الفتى من عَثْرته مُختَنقَ الصدر ، يجمع كراساته ، وَيلمُّ شَعَثَه ، وهو يهمهم :

لو لم تكن أمى مريضةً لعرفتُ الآنَ كيف أربيِّكِ أيتها الحمقاء !

وهَبَط السلّم متشامخاً يَتوَعَّد ، وبلغ فى مَهْبِطِه شِقَّةَ « أم حسن » الأرملة الخيَّاطة ، فألفاها لدى الباب تسألُه فى تخابُث :

صباح الخير يا « يوسف افندى » . . . هَلاَّ أخبرتَنِى كم الساعة الآن ؟

فأجابها وهو يَهُمُّ بمتابعة السير : أوفتْ الساعةُ على الثامنة .

وحملقتْ المرأةُ فيه ، قائلةً له فى دهشة :

ما هـذا يا « يوسف افندى » ؟

— أىَّ شىء تقصِدين ؟

— أتخرج إلى الشارع وأنتَ على هذه الحال ؟

— أيَّة حال ؟

— سُتْرتُكَ ممزَّقة ...

— أنا ؟

فتلوَّتْ المرأةُ ضاحكةً فى دَلال ممقوت ، وقالت :

بل سُتْرَتى أنا . . .

ودَعَتْه إلى دخول مسكنها ، وما أسرع أن أقبلتْ على السُّتْرة تَرْتُقُ ما جَدَّ فيها من فتوق ، وهى تقول :

ما خَطْبُ هذا التمزيق ؟

فقال لها الفتى ، وهو يعالج التخلصَ من مجاذبتها الحديث :

أرجو منكِ أن تَفْرُغِى من الرَّتْق ، فقد أبطأتُ عن المدرسة .

فكَسَرَتْ له المرأة عينَها ، وقالت له فى لهجة ما كرة :

وماذا أبطأ بكَ اليومَ يا « يوسف افندى » ؟

فأزاغ الفتى بصره عنها ، وهينم : شَغَلَتْنِى بعضُ الشئون .

فصوَّبَتْ المرأةُ إليه أنظارها تتفحَّصُه ، ثم همستْ فى أُذُنِه :

إنها فتاة وَضِيعة . . . لا يليقُ بكَ أن تقيمَ لها وزنا .

فتشاغل الفتى بترتيب أوراقه ، وقال : دَعِيكِ من هذا الكلام .

فتدانتْ منه المرأةُ تلاطفُ كَتِفَه ، وهى تهمهم :

يا لها من شِرِّيرة شَغُوب ... أأصابكَ سُوء من هذه السَّقْطة ؟ لقد استطار قلبى من أجلك !

فاشتَدَّ الضِّيقُ بالفتى ، وقال لها :

ألم يَنْتَهِ الرَّتْقُ بعدُ ؟ أرجوكِ يا ستّ « أم حسن » ... أرجوكِ !

وأحسَّ الفتى بذراعها تُطَوِّقُ خَصْرَه ، و بأنفاسها تتلاحَقُ عليه ، فنأى بجانبه عنها ، وانطلق راكضاً يقول :

أشكرك ... سَعِدَ صباحُكِ !

وتَبِعَتْه الأرمَلَة إلى البـاب ، ولبثتْ ترقُب شَبَحه وهو يهبِط الدَّرَج إلى الطريق .

وفيما هى على هذه الحال ، سمعتْ خَفْقَ أقدام من أعلى السُّلَّم ، فأشرعتْ عينَيها ، فإذا هى ترى « بدرية » هابطـةً على مَهَل ، فوقفتْ تنتظرها ، وقد تَنَمَّرَتْ عيناها . وما إن اقتربتْ الفتاةُ منها حتى رمتها الأرمَلَة بنظرات تَتَلَظَّى ، وخطتْ نحوَها تقول فى حِدَّة :

لقـد تجمَّعتْ الأقذار فى الصفائح ، وأنت فى شُغُل عنها . فمتى تتفضَّلين بحملها ؟ أتنتظرين حتى أقذِفَ بها فى وجهك ، أو أصبَّها على رأسك ؟ ... أراكِ مصروفةً إلى المشاجرة وإقلاقِ راحة النـاس ، فأما عملُك الذى تتقوَّتين به فلا يقعُ منك ببال ... مالَكِ و« ليوسف افندى » ؟ ... خير لكِ أن تَغْرُبى عن وجه هذا الفتى ، وإلا كان لك الوَيْل !

فنظرتْ إليها الفتاةُ حائرةً مضطربة ، تقول :

لا شأن لى « بيوسف افندى » أو غيره . . . إنه عندكِ فاطمئنّى به .

فجَنَّحَتْ لها الأرمَلَةُ يديها ، وكأنما مَسَّها شيطان ، وقالت للفتاة :

ما أطولَ لسانَكِ أيتها الوَقِحة . . . ماذا تريدينَ أن تقولى ؟ أتظنّين أنى أنافِسُكِ فيه ؟ من تكونين أنتِ حتى يكونَ بينى و بينكِ منافسة ؟ ألا تعلمين شأنَكِ فى هذه الدار ؟ خير لك أن تَشْغَلِي نفسَكِ بتنظيف المساكن ، وحَمْل الكُنَاسَات !

واسترسلت الأَرْمَلَة تُطْنِب فى الشتم والتقريع ، على حين تابعتْ الفتاةُ مَهْبِطَهَا ، غيرَ معنِيَّـة بالردِّ على ما تسمع من مرذول النعوت والأوصاف .

و بلغت الفتاةُ حجرتَهـا ، فألفَت جَدَّتَها كما تركَتْهَا تَغُطُّ فى نومها ، فانتبذتْ ركناً من الحجرة ، وألقت رأسها بين يديهـا ، ولبثتْ تفكر فيما كان من شأنهـا مع الفتى « يوسف » والأرمَلَة « أم حسن » .

و بينا هى تغالب مختلف المشاعر ، إذ أحستْ بالدمع ينفرِط من مآقيها ، حتى إنها لم تَملِكْ أن تردَّ ذلك الشهيقَ الذى استبدَّ بها ينافس غَطِيطَ جَدَّتها العجوز .

وأخيراً أفاقتْ من نَوْبة النحيب ، وقد عاود نفسَها شيء من السكينة والقرار ، فنهضتْ تصلح من شأنها ، وخرجتْ تستأنف سَعْيَها الذى أَلِفَتْه كلَّ يوم فى سبيل القُوت .

ولما طلبتْ النومَ فى عَشِيَّةِ ذلك اليوم ، لم يستجبْ لها ، وظلت أَرِقَةَ قَلِقَة ، كأنها تتقلَّبُ على الشوك ، وهى فى مُلْتَطَمٍ من الأفكار والمشاعر لا تجدُ منه مَنْجَاة ...

أَجَاوَزَ الفتى حَدَّ المألوف حين هَفَتْ نفسُه إلى تقبيلها ؟ أقَسَتْ هى عليه ، إذ دفعتْه فأسقطتْه دون إشفاق ؟ ألم يكن أَحْجَى بها أن تَرُدَّه عنها فى رِقَّة وذوق ، وألَّا تتجاوز الحدَّ فى الصدِّ والردّ ؟ وما بالُ هذه الأرمَلَة البغيضة تُقْحِمُ نفسها فى شأن فتاها ، فتنبرى للدفاع عنه بلا مُسَوِّغ ؟ ...

وكان وجه الفتى « يوسف » يَلُوح لها وهى على هذه الحال متباينَ الأوضاع والصُّوَر ، فتارةً هو عَبُوس كالح ، وحيناً هو مشرق بَسَّام ... وهو فى كل حالة من أحواله يلاحقها ولا يفتأ يلاحقها ، حتى إنها لَتُخْفِى رأسَها بين الوسائد ، كأنما تهرُب من طيفه اللَّجُوج !

وطوّحتْ بها الأفكار والصُّوَر ، وظلت ترمى بها المَرامِىَ ، حتى أسلمتها إلى وادى الأحلام .

وانصرمتْ أيام ، والفتاة تراجع مألوفَ هدوئها رُوَيدا ، وقد بَنَتْ عزمها على أن تَتَنَكَّبَ عن سُكَّانِ هذه الدار جميعاً ، وبخاصَّةٍ مَسْكنُ الفتى « يوسف » والأرملَة الشَّغُوب . . .

وفى أصِيل يوم وافقتْ صاحبَ الدارعن كَثَب من الباب ، وهو متوكِّىء على عصاه ، يكافح ضعفَه واعتلاله ، فما إن لمحها حتى أطلق صوتَه يناديها ، فتصامَمتْ عنه ، فكرَّر النداء ، فلم تجد مَفِيضاً من التلبية ، فواجهها بقوله :

ما هذا يا « بدرية » ؟ كيف سوّلَتْ لكِ نفسُك أن تتخلَّفِى عنا ؟ لقد سألْنا عنك ، وانتظرْنا حضورَك ، فماذا أبطأ بكِ ؟

فأجابته وهى خافضة البصر :

المعذرة ... فإنى كثيرة الشواغل ، وجَدَّتى مريضة .

فقال لها الرجل :

ألا تعلمين أن « أم يوسف » هى الأخرى مريضة لا تَرِيمُ الفراش ؟ . . . إنها تطلب أن تراكِ ، فاعجَلِى إليها .

فهمهمت الفتاة تَعِدُه أن تزورَها بعد قليل . فتركها الرجل يتحامل على عصاه ، ويقتلع قـدميه . ووقفت الفتاة فى مَدْخَل الدار شاردة النظرات فَـتْرَة ، تسائل نفسها :

أَتَـفِى بوعدها ؟ أم تظلُّ على حالها تتجنَّبُ هؤلاء الناس ؟

وانتهى بها الأمر إلى أن اعتزمت ألا تصعَدَ إلى مسكن صاحب الدار . وفيما هى على وَشْك المُضِىِّ ، تواترتْ على سمعها أصوات مختلطة تتناثر من جانب السُّلَّم . فألفتْ رِجليها تقفان ، وأذنيها تصغيان ، تحاول تَعَرُّفَ الأصوات ، وتَمْيِـيز بَعضِها من بعض ، وقد أحستْ أوصالَها تختلج . وإذا هى تَدْلِف فى حِذَارٍ ومساترة ، وتُتَابِـعُ الإنصاتَ ، ليتسنَّى لها أن تتصيَّد ما يَشِيع من أصوات .

كانت « أم حسن » وقتئذ بباب مسكنها ، تعابِثُ الفتى « يوسف » وتضاحكه وتجاذبه الأفَاكِيَه ، فتسمرتْ الفتاةُ فى موقفها مهتاجةً تتساقط إليها تلك الـكأسُ المريرةُ قَطَرَاتٍ ، فتتجرَّعُها على غضاضتها ، يدفعها إلى ذلك دافع نفسىّ لا قِبَلَ لها بأن تردَّه .

وبغتةً أحسَّتْ الفتاة بأن باعثا يَزُجُّ خطاها خارجَ الباب ، فَهُرِعَتْ إلى حجرتها ، وشرعت تستبدل بثوبها ثوباً آخرَ أنظفَ وأزهَى ، ثم أخذتْ زينتَها ، وما إن اطمأنتْ إلى أنها بلغتْ مأربَها مما

تريد ، حتى خرجتْ من الحجرة قاصدةً مَدْخَلَ السلم تُرْهِفُ السمع ، فلم تَلقَ هنالك إلا صمتاً شاملاً . . .

وما أسرع أن جعلت ترتقى الدَّرَج ، تحدوها فكرة جامحة . ولما بلغتْ فى مُرْتقاها شِقَّةَ « أم حسن » تمهلتْ رويداً تتسمَّع ، فتناهتْ إليها أحاديث الأرمَلَة مع عاملاتها الأجيراتِ تأمر وتَنْهَى !

فخفَّتْ الفتاةُ قدميها إلى شِقَّةِ صاحب الدار ، وقرعتْ الباب جَيَّاشَةَ المشاعر ، وما هى إلا أن انفرج البابُ عن الفتى « يوسف » ففاجأه مَرْأَى الفتاة ، ولكنه تمالك واستجمع ، وراح يَحْدِجُها بنظرات حِدَادٍ ، وقد حضرته حادثةُ الأمس حين لَقِىَ من هذه الفتاة مَهَانَةً جرحتْ كبرياءه وعِزَّتَه . ثم افترَّ ثغرُه عن ابتسامة كريهة ، وهو يقول عابثاً بسلسلة المفاتيح فى يده : ماذا جاء بِكِ يا ست « بدرية » ؟

فأجابته من فورها فى لهجة يَشِيع فيها الاضطراب ، محاولةً أن تَضْبِطَ عواطفَها ، وهى تُزِيغُ عنه البَصَر :

جئتُ أزورُ والدتَك . . . علمتُ أنها مريضة !

فتضاحك الفتى فى هُزُؤٍ وسخرية ، وقال :

حقًّا إن قلبكِ مملوء بالخير . . . نحن فى غِنًى عن خدماتك !

فبرَقَتْ عينُ الفتاةِ ، وقالت :

أىُّ شأن لك بخدماتى ؟ إنى أحضُرُ من أجل والدتك ، وقد طلب منى والدك أن أصعَد إليها . . . دَعْنِي وشأنى ، وافرُغْ أنتَ لمسائلك التى تشغَل بالك !

— أىَّ مسائلَ تقصدين ؟

فاندفعتْ صائحة :

سَلْ صاحبتَك «أمَّ حسن» ... انظر ماذا كنتَ تصنع معها منذ هنيهة!

فقهقه الفتى مواصلا العَبَثَ بسلسلة المفاتيح ، وقال :

« أم حسن » ... إنها سيدةٌ ولا كالسيدات !

فاشتدّ اهتياجُ الفتاةِ ، وهى تقول :

أيَّةُ سيدة هذه العجوزُ الشوهاء التى تلاحِقُ الشُّبَّان ؟

— بل إنها سيدة تعرف الذوق ، وتحسن الأدب ، وتقدِّر مَقامات الناس . . .

— وهل لهذه المرأةِ مقام ؟

— عجيبٌ أمرك ... أجئتِ الآن لتناقِشينى فى شأنِ « أم حسن » ؟

— قلتُ لكَ جئتُ لألْقَى والدتَكَ ، فافسَحْ لى .

— لا أسمحُ لفتاةٍ مثلِكِ أن تطأَ عَتَبَةَ الباب ...

— ما ذا كان منى حتى تحرِّمَ علىَّ الدخول ؟

— هل نسيتِ إساءتكِ إلىّ ؟

— وهل أسأتُ إليكَ ؟ إنى لا أسىء إلى أحد !

— أتنكرين ما جَرَى منكِ ؟

— أنتَ الذى ضايقتنى .

— وإذا كررتُ معكِ ما صنعتُ بالأمس ؟ . . .

— إذن فلا أُحجم عن حماية نفسى .

— اغْرُبِى عن وجهى .

— ليس هذا بيتَكَ !

وهَمَّتْ الفتاةُ باقتحام الباب ، فأمسكَ بها يحاول إقصاءها ، وهى تعالج التفلُّتَ منه بادئ بدء ، فإذا هو يضبطُها بين ذراعيه ، وإذا بهما كأنهما يلتحمان . . .

ومضتْ على ذلك فترةُ صمت ، لا تدرى :

أفترةُ عِرَاكٍ هى ؟ أم موقفُ عِناق ؟ !

ووجدتْ الفتاة نفسَها قد أجهشَتْ بالبكاء ، وأخذت تصيح قائلة :

لا تفخَرْ بالتغلُّب على فتاةٍ مثلى . . . أترُكْنِى !

— لن أترُكَكِ حتى أَروضَك وأُخْضِعَك أيتها الشَّرِسَة !

واختلجتْ الفتاةُ بين يديه ، تريد الانطلاقَ ، فشَدَّ عليها وعَنُفَ بها لَكْزاً ووَكْزاً ، فخارتْ عزيمةُ الفتاة ، ولم تَعُدْ تدفعُه عنها ، بل لقد جعلتْ تتشبَّثُ بكتفيه ، كأنها تخشَى أن يُفْلِتَ من بين يديها !

وكَفَّ الفتى عن اللَّكْز والوَكْز ، وما برحتْ الفتاةُ متشبثةً به تنتحب ، فأخذ برأسها يرنو إليها ، فاستجابتْ له عيناها ، وتلاقتْ النظرات ، وما هى إلاَّ أن انهال عليها الفتى ضَمًّا وتقبيلا . . .

جنازة حارة

تقدَّمَ « بَشِير أغا » يَهْدِى الطبيبَ إلى مضجَع الخادم المريض « مصطفى حسن » ، وما زال يتعرَّج معه فى طوايا الدِّهْلِيز ، حتى أوفَى به على حجرة مُغْبَرَّة تتناثر فيها المقاذِر ، يتسلل إليها ضوء الشمس مهزولا من كُوَّة ضَيِّقَة فى أعلى الحائط . فأما أثاثُها فليس إلا حُطاماً يُفْصِحُ عن قسوة الأيام . وكان أبرزَ ما حَوَتْ الحجرةُ من أثاث عتيق خِزانةٌ كالحة نَخِرَة لايناسِبُ مظهرُها ما طُوِيَتْ عليه جوانحُها من مال ومتاع . . .

لقد كان « مصطفى حسن » شَحِيحَ اليد ، صَبُوراً على الحِرمان ، ما إن يقع فى حَوْزَتِه قَدْر من المال ، أو شىء من ضروب المتاع ، إلا أودعه خِزانتَه الأمينة ، وراضَ نفسَه على حراستِه لا يمسُّه بسوء .

أقبل الطبيبُ على المريض يَجُسُّ نَبْضَه ، ويكشف عن صدره ، ويتسمَّع إلى شَهِيقه وزفيره ، وما أسرعَ أن سَجَّاه ، وأخذ بيد

« بشير أغا » ، فلما غادر البابَ أنهى إليه أن المريضَ قد حان حَيْنُه ، وأنه لم يَبْقَ له فى هذه الدنيا الفانية إلا ساعتان .

وما كاد الطبيبُ يبارِحُ الدار ، حتى سارع « بَشِير أغا » إلى الطبقة العليا من القصر ، لِيَلْقَى مولاتَه ، وهو يُعَانِى جهداً كبيراً فى حَثِّ خطاه ، إذ كان بَدِيناً تَخَالُه غِرارةً قد حُشِيَتْ من لحم وشحم . فألفَى السيدة تهتَزّ ، وهى على سَجَّادة الصلاة ، تُرَتِّل ما تيسَّر من كتاب الله ، وبين يديها مُقْرِئَتُها « الشيخة حفيظة » مُصْغِية إلى التلاوة ، تراجعُها فى أحكام التجويد من مَدّ وغُنَّة وإدغام . . .

وإذ شَعَرَتْ رَبَّةُ القصر بِمَقْدَمِ «الأغا» أزاحتْ نَظَّارتها الذهبية عن أنفها ، ورفعت عن المُصْحَفِ رأسَها ، وقالت مستفسرة :

هل جاء الطبيب ؟

فأجابها الرجل ، مبهورَ الأنفاس : لقد حضَر ، وانصرف . . .

فسألته : ماذا قال ؟

فأخذ يجفِّف ما تفصَّدَ من عرقه ، ويحاول أن يَضْبِطَ أنفاسَه المكروبة . ثم قال حزين اللهجة ، ناكسَ الرأس : أبقَى الله حياة مولاتى !

فعلا صوتُ السيدة بقولها فى اهتياج : أمات ؟

فأجابها « الأغا » : إنه يُسْلِم الرُّوحَ !

فطَفَرَتْ من عين رَبَّة القصر عَبرة كفكفَتْها بمنديلها ، وهى تقول : إنّا لله وإنا إليه راجعون !

فتبعتْها « الشيخة حفيظة » تَجْهَر بصوتها الأجَشّ :

الفاتحة لِرُوحِكَ يا « مصطفى حسن » .

واشترك الثلاثة يقرءون الفاتحة فى ضراعة وتخشّع ، ثم نظر « بشير أغا » فى ساعته ، فتبيَّنَ أنها العاشرة ، فناجَى نفسَه بقوله :

سيموت « مصطفى حسن » فى الساعة الثانيةَ عشرةَ تماماً . . . حين ينطلقُ مِدْفَعُ الظُّهر !

وعاد يترجَّح ، مقتلعاً قدميه إلى حجرة المريض ، فاتخذ مجلسَه على كرسىٍّ بالباب ، وجلس يَخْفُر الحجرة ، ويَحْمِى خِزانتها من يد السَّطْو والعبث .

وحانتْ منه نظرة إلى سرير المريض ، فوجده قد أخذتْه غيبوبة ، فهمهم يقول : الدَّوام لله يا « مصطفى حسن » !

وانساقت به الذِّكْرَيَاتُ تعرِضُ له حياةَ ذلك المريض منذ كان صبيًّا جَلَبَه المرحوم « الباشا » رَبُّ القصر ، وعُنِىَ بتربيته ، واتخذه خادِماً لشأنه الخاصّ ، فنزل من سيده منزِلا حسناً عَظُمَ به جاهُه ، وقويَتْ كلمتُه . . . فلما قضى « الباشا » نَحْبَه تحدرتْ به الحال ، وتعاورتْه العلل ، فتهاوَى من

كرسيِّه الرفيع ، حتى أصبح فى القصر ممن يُرْزَقُون لوجه الله !

وسَرعان ما علمتْ حاشية القصر بنبإ المريض الذى يُسْلِمُ الرُّوح . . . فتقاطر الخَدَمُ والحَشَم من مختلفِ الأرجاء ، يتبيَّنون جَلِيَّةَ الخبر ، فاعترضَهم « بشير أغا » راصداً للباب ، يضرِب بعصاه الأرض ، إرهاباً لمن تُحَدِّثُه نفسُه بالاقتراب . فجعل الخدم يتدانَوْنَ من « الأغا » فى خَشْيَة ، وهم يسألونه فى تشوُّف :

هل مات « مصطفى حسن » ؟

فكان يجيبهم فى إباء وترفّع : إنه يُسْلِمُ الرُّوحَ !

وأخيراً نَمَى الخبر إلى «عمّ مدبولى» البستانىّ ، وهو شيخ علتْ به السنّ ، لا تترك السُّبْحَةَ يدُه ، ولا فتورَ لثغره عن التمتمة بالأدعية والابتهالات . فجاء إلى الحجرة يتعرَّف و يستطلع ، وسَوَّى له مكاناً على أديمِ الأرض ، بجوار كرسىِّ « الأغا » ، وجلس القُرْفُصَاء . . . وما سرع أن اهتزَّ منخرِطاً فى أدعيته وتسبيحاته !

وكان « الأغا » يطمئن إلى صُحْبَة ذلك الشيخ ، ويأنَسُ بمجاذبته الحديث ، فلم يَضِقْ بمقدَمِه عليه الساعةَ ، بل لقد أمال إليه رأسَه يقول فى همس : سيموت « مصطفى حسن » بعد قليل . . . تُرَى ماذا نفعلُ بِتَرِكَتِه ؟ ألا يُحْسِن أن نوزِّعَها على الخدم بالعدل والإنصاف ؟

فما إن سمع الشيخُ كلمة « التَّرِكَة » حتى التمعتْ عينه ، وأخذ يُخَلِّلُ لحيتَه بأصابعه ، وقال مُسْبِلًا جفنَيْه :

افعَلْ ما تراه خيراً يا سيدى . . .

— سأستخلص لك حِذَاءً جديداً ، وجِلْبَاباً قَشِيباً ، ودِثَاراً من الصُّوف . . .

وثَمَّةَ همهم الشيخُ يقول :

قلتُ لكَ افعلْ ما تراه خيراً يا سيدى . . . كلنا مطمئنون إلى عدالة حُكْمِكَ . . . ولكن لا تنسَ نصيبَكَ من التَّرِكَة !

— الحقُّ أنى لا مَطْمَعَ لى فى شىء . . . كلُّ ما أنا صانعُه أن آخُذَ صُرَّةَ النقود ، فأرفعَها إلى مولاتى بما فيها من قليل أو كثير ، لتتصرفَ فى شأنها كما تَهْوَى . . .

وترامَى هذا الحِوَارُ إلى سَمْع « محمدين » رئيسِ الخدم ، فتدانَى منهما ، وقال « للأغا » فى لهجة استعطاف :

أرجو أن أكونَ فى ذاكرتك يا سيدى !

— وهل أنساكَ يا « محمدين » ؟ إنى مختصُّك بما فى حَوْزَةِ « مصطفى حسن » من الخِفَافِ الحُمْر ، فقد كان وَلُوعاً بها ، يحسن انتقاءها ، وعنده منها عَدَدٌ جَمّ . . .

فصاح « محمدين » وقد انتفخت وَجْنتاه ، وارتعشت شفتاه :

أطال الله بقاءك . . . ولكن ألاَ يكون المُطْرَفُ الجديدُ من نصيبي ؟

— وهذا أيضاً . . . لا أَحْرِمُكَ إياه ، ما دمتَ فيه راغبا .

فأهوَى الرجل برأسِه على كَتِفِ « الأغا » فقبلها قُبلة انشراح ، واعتراف بالجميل . . . وانصرف رئيس الخدم مَجْلانَ ، وَثَّابَ الخطا . . .

فما أسرع أن أقبل بعده « عبد القوى » السَّقَّاء ، يقول مهتاجَ النبرات :

لقد أديتُ للمرحوم أجلَّ الخدمات . . . أليس لى فى تَرِكَتِه حقٌّ ؟

فصاح «الأغا » يجيبه : ما أغباكَ ! أتُرَاني نَسِيتُك ؟!

فاطمأنتْ نفس الرجل ، وقرَّت بلابلُه ، وتكلم فى ملاطفة وتَمْلِيق :

سيدى « الأغا » حفظه الله يعلم أنى قَنُوع . يرضينى أىّ شيء . . .

لا أرجو إلا بعضَ التوافه . . . فأولا : الحذاء الأسود الذى كان للمرحوم « الباشا » من قبلُ ، ولم يلبَسْه « مصطفى حسن » حتى اليوم . . .

وثانيا : الطربوش الجديد الذى اشتراه « مصطفى حسن » للعيد الماضى

ولم يضعه على رأسه بعدُ . وثالثاً : القُطْنِيَّة المُعَصْفَرة التى بقيتْ مَصُونَةً لم تمسَسْها يَدُ الخياط ! . . . ورابعاً . . .

وهنا تحرك الشيخ البستانىّ ، وهو فى جِلْسَة القُرْفُصاء ، وأمسك عن أدعيته ومناجياته ، وثار صوتُه مغضَباً يقول :

أنتَ لا تريد أن تتركَ لسواك شيئاً ...دعِ الأمرَ لحضرة «الأغا» فهو يوزِّع الأشياء بالسَّوِيَّة والحكمة . . . الخَدَم فى القصر كثير . . . أين نصيبُ القارئ ؟ أين ما يأخذُه الطاهى ؟ أين ما يناله البوَّاب ؟

وفى هذه اللحظه نَجَمَ صوت المريض متداعياً يحاول أن يشقَّ طريقه إلى البـاب ، كأنه صوت ينبعث من قبر . . . فأرهف الجمعُ السمعَ ، فإذا هو « مصطفى حسن » ينـادى ، فنهض « الأغا » يجفف عرقه ، وغمغم : لقد دنتْ الساعة الفاصلة . . . الرجل يُسْلِمُ آخرَ الأنفاس !

واستدار « الأغا » يَزْحَم البابَ بِجِرْمِه الضخم ، ودخل يقفو أثرَه بعض خُدَّام القصر وحاشيته ، فأحاطوا بمضجع المريض المحتَضَر ، فَنَدَتْ عنه اختلاجة طارئة ، وأمسك بيد « بشير أغا » وهو يضغَط عليها جُهْدَ ما يستطيع ، ثم قال متقطع الأنفـاس : ماذا قال الطبيب ؟ ماذا فى الأمر ؟ سمعتُ حديثاً فى شأن تَرِكَتى !

فنـكَّسَ « الأغا » رأسَه هُنَيْهة ، وهو يربِّتُ كَتِفَ المريض ،

ويَلُوكُ بين شِدقيه كلماتٍ فى غير إبانة ، فامتُقِعَ وَجْهُ « مصطفى حسن » وانتظمتْ جسمَه الرِّعْدَة ، وأدركتْه نَوْبَةُ سُعال وشَهِيق أسلمتْه إلى غيبوبة شاملة !

ولم يبقَ شكٌّ عند أحدٍ من الجمع فى أن المريضَ قَضَى ، فأخذتْهم غاشيةٌ من الرهبة ، عَقَدَتْ ألسنتَهم جميعا ...

و بعد فترة شَخَصَتْ أبصارُهم إلى « الأغا » ففَطَنَ إلى ما يَعْنُون ، فدنا من الشيخ البستانىّ ، وأسرَّ إليه كلمات ، فاقترب الرجل مُرْعَشَ الأصابع ، يبحثُ تحتَ وِسادَةِ المريض عن مفتاح الخِزانة .

و بينا هو يتحسَّس ، انفرجتْ أجفان المريض ، فبُهِتَ الشيخُ أولَ وهلة ، ثم ما لبث أن قال فى وداعة وتحنُّن : هاتِ المفتاحَ يا « مصطفى » أُخْرِجْ لك الدِّثارَ الصُّوفىّ ، فإنى أجدُك مَقْرُوراً .

فاختلجتْ شفتا المريض بقوله :

دَعُوا الدِّثارَ مَصُونًا ... لا ضرورةَ لِابتذالِه ... سأحتاجُ إليه فى قابلِ الأيام !

وبدا وجهُهُ متقلِّصاً ، كأنه فى إجهاشةِ بُكاء ، وشَدَّ على يدِ الشيخ البستانىّ ، وحَدَقتاه تدوران ، وصوتُهُ يخونُه فى إبلاغِ قوله :

لا أريدُ أن أموتَ . . . صحتى تتحسَّن ... أؤكد لك أن صحَّتى تتحسَّن ...

واشتعلتْ فى جُسْمَانِه نَشْطة وحَمِيَّة ، فعالج أن يستندَ إلى شيخ البستان ليجلسَ ، وهو يقول : أريد أن أتركَ الفِراش . . . أريد أن أتمشَّى فى الحجرة خطوات . . . أشعر بأنى أستطيع القيام !

وفى هـذه اللحظه اختنَقَ صوتُه ، وسقطَ على الوِسادةِ رأسُه ، وجعل صدرُه يعلو ويهبط ، وأوصاله تتشنَّج . . . ثم انفتح فمه يلتمسُ الهواء فى إلحاح ، وانتظمتْه انتفاضة كخَطفة البرق فاضتْ بها الرُّوح .

فأقبل الشيخ البستانىّ يبسُط عليه غِطاءه ، ثم دسَّ أنامله فى طوايا الوِسادة ، فاستخرج المفتاح ، ومَدَّ به يَدَه إلى « الأغا » فى تُؤَدَةٍ وخشوع .

وأصدر « الأغا » أمره فوراً بنقل الخِزَانَةِ خارجَ الحجرة ، فتجمَّع الرجال يتقاسَمُونَ جوانبَها حملا ونقلا ، ولـكنها أفلتَتْ من بين أيديهم ، فهوَتْ على الأرض متحطِّمة ، فانكشف فيهـا بعضُ ما حوتْ من ضروب المتاع . . . فمدَّ أحدُ الرِّفَاقِ يَدَهُ خُلْسَةً يجتذب منها شيئاً ، فلمحه آخر ، فحذا حَذْوَه ، وما هى إلا أن ترامَى الجمْع على الخِزانة يتخاطفون ما فيها . وحَمِيَتْ معركة التناهُب ، فاختلط الرِّفَاقُ بعضُهم

ببعض يتنافسون ، وتشابكت الأيدى تتدافع وتتنازع ، وتعالتْ الأصواتُ تحمل ألفاظ المشاتمة والسِّباب .

ووقع فى رُوع « الأغا » أن صُرَّةَ النقود فى خطر ، فانبرى يرسل من حلقه صيحة الإمْرَة ، راغباً إلى الجَمْع فى أن يَكُفُّوا عن السلب والاغتصاب ، فلم يُعِرْهُ أحد من الرفاق جانبَ انتباه . . . وهل أبقتْ الفريسةُ لهذه الذئاب الجِياعِ سَمْعاً يَعِى ؟ لقد كان الرِّفاق فى شُغُل بما بين أيديهم مِن غَنِيمَةٍ مستباحَة ، مَنْ ظَفِرَ منها بشىء فهو له مَتاع !

وجُنَّ جنون « الأغا » فلم يجد مندوحةً عن الإقدام والاقتحام .

فهجم مستبسِلاً مستيئسا يخوضُ المعركة بكل ماوهبَتْه الطبيعةُ من جوارحَ ، تارةً يَزْحَمُ بِمَنْكِبَيْهِ ، وطوراً يدفع بساعديه ، ومرة يَكْسَع برجليه ، حتى إنه لم يُعْفِ أسنانَه من أداء واجبها فى هذا العِراك !

وتاح له بهذه الوسائل أن يَشُقَّ طريقه إلى الخزانة ، فلما اقترب منها ترامَى عليها بجُسْمَانِه الضخم ، يحجُبها عن الجمع ، وشرع يُعْمِلُ أصابعه فى جنباتها يَنْبُشُ ويتفقَّدُ ، فلما عَثَرَ على ضالَّتِه المنشودة ، أسرع إليها يدسُّها فى جيبه ، ونهض عن الخزانة وقد خفَّتْ حِدَّته ، وبطلت صَوْلَتُه ، وانصرف يَمُطُّ شفتيه للرفاق ، ويلعَى عليهم ما طُبِعَتْ عليه نفوسُهم من ضعف الوفاء ، وقلة المروءة ، وسُوء الأخلاق !

وصَعِد « الأغا » إلى طبقة القصر العليا ، يُنْهِى إلى مولاته نبأ الوفاة ، ويسألها ما يصنع فى شأن الجِنازَة ، فترحمتْ السيدةُ على الفقيد ، وناولتْ « الأغا » قدراً من المال للإنفاقِ منه فى هذا الشأن ، وأوصتْه بالعناية والاهتمام . . .

وعاد « الأغا » إلى حجرته ، فأحكم إغلاقَ بابِها وراءه ، وبسط الصُّرَّةَ أمامه ، فتناثرتْ النقود الذهبيةُ متوهِّجةً رَنَّانة ، فطفِقَ يتوسَّمُها ويعُدُّها ، فإذا هى مِائة كاملة ، فأقبل يكرِّر عَدَّها مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ ، وهو واجفُ القلب من فرحة واغتباط . . .

وفى أصِيل ذلك اليوم خرجتْ من باب القصر جِنازة « مصطفى حسن » مكتملةً علائم الأُبَّهة ، مُشعِرَةً بعظيم الإعزاز ، يتقدمها حَمَلة القماقم والمباخر ، وهم رَتَلٌ منظَّم فى سِمْطَيْنِ كأنهما صَفَّان من الجند . . . ومن خلفهم النَّعْش تُجَلِّلُهُ المطارف المزخْرَفة ، وهو يتمايل على الأكتاف ، كأنه يتخطَّر فى خُيَلاء . . . ومن حوله القرّاء تنطلق من حناجرهم الأدعيـة والصلوات ، كأنهم يَزُفُّونَ الراحلَ إلى مقرِّهِ الأخير !

وتَصَدَّر المشيِّعين خُدَّامُ القصر ، على رأسهم « الأغا » وهو يسير

وَزِينَ الخُطَا ، رزينَ السمت ، يتوكأ على عصاه ، كأنما هو قائد يَقْفُوهُ الجيشُ فى ساحةِ عَرْضٍ مَهيب . . .

وقد أبَى خُدَّام القصر إلا أن يُشَيِّعوا رفيقَهم الراحل بما يليق ، تكريماً له فى يوم وَدَاعِه الأبدِىِّ ، فلم يجدوا خيراً من ملابسه وأشيائه ومقتَنَياتِه يرتدونها وَيتَحَلَّوْن بها . فظهرت الجنازة بهيَّةَ الشارة ، أنيقةَ المَظْهَر ، كأنها عروس يُحْمَلُ معها جِهَازُها حينَ الزِّفَاف !

... طريق إلى الحب

« عباس فريد » الطالب بالمدرسة الخديوية ، أو « عباس بك فريد » نجل المرحوم « عبد السلام باشا فريد » فتى فى السادسةَ عشرةَ ، رزينُ السمت ، وديعُ الأخلاق ، لا عهدَ له بعدُ بمغامرات الشباب ، مغامراتِ الحبِّ والنساء . . .

وكان لأسرة الفتى مَغْنًى أنيق فى « رمْل الإسكندرية » تقضى فيه فترةَ الاصطياف كلَّ عام . فما إن فَرَغ الفتى من أيام الامتحان ، واختتم عامَه الدراسىّ ، حتى شَدَّ رِحاله إلى مَغْنَى الأسرة فى الثَّغْر ، يستوعب حظَّه من مُتَع الشاطىء ، فيستحِمُّ ويتنزَّه ، ويرتاد مَلْهَى « الكازينو » ، ويختلف إلى دُورِ السينما والمسارح ، يشارك رِفاقه من الفِتْيان ما ينعَمُونَ به من فنون المسرَّات .

أطلَّ « عباس » من نافذة حجرته المشرفة على البحر ، وعلتْ وجههَ إشراقة ، وهو يَرْمِى بطَرْفه فيما حوله ، مرحِّباً بتلك الحياة الأنيسة التى طال إليها تَحْنَانُه طَوالَ أشهرِ الشتاء .

واتخذ الفتى مجلسه على مَقْرَبَةٍ من النافذة ، وفى يمينه قِصَّة يطلب السَّلْوَةَ بقراءتها ، ولكنه ما كاد يخطو فيها بضعَ صفحات ، حتى اختلطتْ عليه مشاهدها ، فألقى بها فى مَلَل ، وبَقِىَ يفكِّر فيما أصابه اليومَ من فوز حين خَرَجَ إلى البحر مع أصحابه يتسابقون بالقوارب ، فلم يستطيعوا اللَّحَاقَ به ، وظل هو السابقَ الأول .

وفيما هو يُسَرِّح بصره فى أرجاء البحر المهتاج ، عرضتْ منه التفاتة إلى حديقة الدار المجاورة ، فألفى بنتَ صاحب الدار تجوسُ خلالها ، وهى فتاة أجنبيَّة اعتاد « عباس » أن يراها حِيناً بعد حِين ، كما يرى أثاثَ المنزل ، أو أشجارَ الحديقة . وما كان ليشغَلَهُ منها شىء ، فإنه مزدَحِم الخاطر بما يزاول من رياضات ينافِسُ فيها الرِّفاق .

وبينا هو على هـذه الحال ، إذ انفرجَ البابُ فجأة ، وبدتْ منه والدةُ الفتى وفى عينها شَرَر ، وعلى وجهها غَبَرَةُ الغضب .

فابتدرتْه تقول فى لهجة المحنَق :

طالما نَهَيْتُك أن تَمُدَّ عينيك إلى النساء . . طالما رغبتُ إليك فى أن تكونَ مؤدَّباً مهذَّبَ الأخلاق . . . إلى متى تظلُّ فى غَوَايتك ؟

فدَهِش الفتى ، وأنكر من أمِّه أن تتعمَّدَه بهذا التعنيف وسألها :

أىَّ نساء تَعْنِين ؟ أقسم بالله العظيم إنه لم يكن من ذلك شىء !

— كذاب أنتَ !

وعزّ على الفتى أن يُتَّهَمَ ظلما ، وألا تصدِّقه أمُّه فيما ينفيه من هذا الاتهام، فكستْ وجهَه غِشاوة من كآبة واغتمام.

فتدانتْ منه الأم ، وقد أدركها عليه بعضُ إشفاق ، قائلة له :

إنى أبغِي خيرَكَ يا «عباس» ... أريدكَ شابًا على خلق كريم ... اصْدُقْنِي . . . لقد كنتَ تبتسم لبنت الجيران . . . أليس كذلك ؟

فحدّق الفتى فى وجهها صائحاً :

لم أكنْ أبتسِمُ لأحد . . . لقد تذكرتُ شيئاً سرّنى فابتسمتُ !

فربّتت الأم كتفه فى ملاطفة ، وهى تقول :

أنصح لكَ يا بُنَيّ أن تتجنبَ هذه الفتاة !

— لا شأن لى بأحد . . .

— ذلك أملى فيك .

وانصرفتْ الأم من الحجرة ، بعد أن طبعتْ على جبين ابنها قُبلَة حنان ... وابنُها يَتْبعُها بنظرةٍ مِلؤُها التعجُّب ، وهو يهمهم :

سبحانَ الله العظيم !

وانتبه « عباس » من نومه فى رَوْنَقِ الصباح ، ناشطاً يريد أن

يَعْجَل إلى ظُلَّتِه على شاطئ البحر ، ليلقَى الرِّفاق ، ويقاسمهم مباهجَ الاستحمام .

وفيما هو يتخطَّى عتبة الدار ، أخذتْ عينُه « بنتَ الجيران » تحمل لَفِيفَةً حوتْ لَبُوسَ البحر ، فأسرع ماضيا عنها ، متجنِّباً مَرْآها ، وقد حضره ما دار بينه و بين أمِّه من مُسَاجَلَةٍ فى شأن هذه الفتاة .

وفى عصر يوم صادف « عباس » صديقَه « مرادا » فى « الكازينو » فترافقَا يتحدَّثان . وما إن خَطَوَا بعض خطوات حتى مَرَّ بهما سِرْب من الصبايا يتضاحَكْنَ ، فنظر « مراد » إلى إحداهن ، وأسرع إليها يحيِّيها ويطارحُها الكلامَ فى بِشر وإيناس . ورجع إلى صديقه ، فألفاه واقفا تُجاهَ البحر ، يَلُوحُ عليه التزمُّت والجِدُّ ، فقال له : كان بودى أن أُعرِّفَكَ بصاحبتى !

— لا شأنَ لى بصاحبتك .

— ولماذا ؟ إنها فتاة لطيفة . . .

— دَعْنى من سخافتك !

فعجب « مراد » من قوله ، وحدَّق فيه يقول :

ما زلتَ طفلا يا « عباس » !

و بغتةً بدتْ « بنتُ الجيران » على مقرَبة من الرفيقين ، وهى

تتهادَى فى لُمَّة من الصُّوَر يحبات . فشدَّ « مراد » على يدِ رفيقه ، قائلا له : هذه جارتُك . . . ما أملحَها من فتـاة . . . وَدِدْتُ لو تَمَّ بيننا تعارُف !

فلوى « عباس » رأسه ، حتى لا تقع على الفتـاة عينُه ، وغمغم يقول لـ« مراد » : بربِّك اتركْ هذه الفتاةَ وشأنَها !

وسار حَثِيثاً ، يجرُّ رفيقَه جَرًّا . . .

ولما أوَى « عباس » إلى بيته فى المَساء ، أنكرَ من أمّه جَهامَةً توضحتْ على مُحَيَّاها ، لم يدرِ لها سببا . . . فلما أصابَ عَشَاءه ، وهَمَّ أن يمضِيَ إلى حجرته ، رغبتْ إليـه أمه فى أن يَتْبَعَها إلى حجرتها الخاصَّة بها ، فانقادَ لها . وما كادت الحجرةُ تحتويهما حتى أسرعتْ الأم تقول : ما برِحْتَ على هواك يا«عباس» . . . لا تُلْقِى لنصحى بالا !

— كيف ؟

— لقد حذَّرتُكَ النظرَ إلى بنت الجيران .

— وماذا كان منى ؟

— لقِيتَها صبحاً ، فبادلتَها النظرَ والِابتسام .

فصاح الفتى : أنا ما نظرتُ ولا ابتسمتُ !

فقاطعتْه الأمُّ تتابع قولها : وتلاقيتُما عصراً ، وأنتَ فى صحبة « مراد »

تذرعان « الكازينو » ذهاباً وجيئة . . . فكان من تحيتك لها واهتمامك بها ما كان فى الصباح !

فرفع الفتى صوته قائلا : لم يكن الأمرُ على هذا النحو .

وشرع « عباس » يقصُّ على أمه فى تؤدة ما جرى له فى يومه ، وما كان من تجافيه عن النظر إلى الفتاة ، فلم تمهله الأم ليستكمل روايته ، ولكنها عاجلته بقولها فى لهجة صارمة : هذه آخر مرة أحذرك فيها وأنذرك . . . أترضى لنفسك أن تتعلق بفتاة لا هى من جنسك ، ولا هى لائقة بك ؟ لعمرى لو فعلت لذهب مستقبلك أدراج الرياح !

— عجيبٌ ما تقولين يا أماه . . . لا تعلقَ لى بهذه الفتاة . . . لا تعلُّقَ لى بأحدٍ على الإطلاق !

وانفتل من الحجرة غضبانَ أسِفاً ، يفكر : كيف تسنى لأمه أن تعرفَ من أمره ما عرفتْ ؟ وسرعان ما ألقى فى رُوعه أن أخته الصغرى هى التى دبجتْ هذه الوشاية وحملتْها إلى أمه لتنتقمَ منه ، فكثيراً ما ضاقتْ بما له عليها من سلطان ، وكثيراً ما تبرمتْ بما يُلزِمُها به من أمر ونهى ، فأقسم بينه و بين نفسه ليُحْسِنَنَّ تأديبها ، وليبالغَنَّ فى عقابها على هذه الفعلة الشنعاء .

وصبحاً خرج « عباس » إلى الشرفة ، يتملَّى منظرَ البحر ، فألفى

«الستّ إقبال»... ضيفةَ البيت ، تلك التى تؤنسُ أمَّه بحديثها العَذْب وما يتخلله من دُعابات وأفاكيه ، فقد كانتْ فى عصر شبابها الغارب سَبَّاقةً فى مغامرات الحب والهيام . . . وما كاد يراها « عباس » حتى أقبل عليها قائلا : ماذا تفعلين يا « ست إقبال » ؟

— أَرْتُقُ ثوبى المهلهل . . . إن جيبى أصبح كقلبى خالياً . . . فمن أين لى بثوبٍ جديد ؟

ثم جعلتْ تطيل النظرَ إليه ، وعلى فمها ابتسام مُريب .

فقال لها فى تعجُّب : ما لَكِ تنظرين إلىَّ على هذا النحو ؟

— حقًّا لقد تغيرتَ يا « عباس » !

— تغيَّرتُ ؟

— أجل ، كَبِرتَ . . . ولكن ما بالُ وجهكَ يكسوه شُحوب ؟ ومالكَ تنطوى على نفسك ، كأنك فى حيرَة وقَلَق ؟

ثم رنّت ضحكتُها النِّسْوية العابِثة ، وهى تقول :

إن قلبك كجيبك ملآن . . . والحب كالذهب يشغل البال !

فحدَّق فيها « عباس » تَعْرُوه دهشة ، وما لبثت « الست إقبال » أن ألقتْ ما كان فى يدِها على المنضدة ، ونهضت تأخذ بكتفِ الفتى ، وتهمس فى أُذنه :

لا تَثْرِيبَ عليك . . . كل فتى فى مثلِ سنِّك يَعْشَق . . . ما أحلى الحبَّ فى مَيْعة الشاب !

وحانت منها التفاتة إلى الحديقة المجاورة للدار ، فوقع بصرُها على « بنت الجيران » تَجُوسُ خلالَ الشجر ، فغمزت المرأة يد الفتى ، وهى تقول مهتاجة النبرات :

انظر . . انظر . . ما أحلاها . . . يابختك يا « عباس » !

فتضرَّجَ وجهُ الفتى ، واتهرَ « الست إقبال » ، وغادر المكانَ مسرعَ الخطوات ، فَأَوَى إلى حجرته ، وقد أحسَّ بخواطره تتزاحم ، يلوح بينَها طيفُ الفتاة ، كأنما يتدانَى منه فى ملاطفة وإشراق .

وبينما كان الفتى بعد هَدْأَةٍ من الليل يسير إلى مَرْقَدِه ، مرَّ فى طريقه بحجرة الخدم ، فاسترعَى انتباهَهُ همس يتناثر فيه اسمُه ، فوقف يتسمَّع ، فإذا بالخدَم يخوضون فى حديث عنه مقرونٍ باسم « بنت الجيران » ، وهم يتكلمون فى نشوة وإعجاب . . . فلاحتْ على وجهه بسمةُ ارتياح ، ومضى خفيفَ الخطو يترنَّم ، وما هى إلا أن احتواه فراشُه يهنَأُ بأحلام عِذاب .

وفى الغداة استيقظ من نومه يفتح النافذة ، فتراءتْ له « بنت الجيران » فى شُرْفَةِ بيتها أمامه ، فلم يتراجَعْ ، بل ظل فى موقفه يتَمَلَّاها

فإذا هما بغتةً يتطارحان النظر ، وما لبثا أن ابتسم كلاهمـا لصاحبه فى رقّة وتلطُّف . . . و بعد لحظات غادرتْ الفتاةُ الشرفة ، فترك « عباس » النافذةَ مترنحَ الأعطاف ، خفّاقَ الفؤاد .

وتواصلتْ الأيام ، فلم تبقَ شرفة أو نافذةٌ فى البيتين المتجاورَيْن إلا سجلتْ فى حَيْطَةٍ وحَذَر ألوانًا من التحايا ، وفنونًا من البَسَمَات ، يتراسَلُ بها القلبان الطَّرُوبان !

وأحسَّ الخدَم أن الفتى ينسلُّ من حجرة فراشه فى جوف الليل ، فيسارقُ الخطا فى مساترة واحتراس ، وَوِجْهَتُه حديقةُ الجيران . . .

مسطرة مبروك افندى

بارح التلميذُ « دِعْبِس الكُومِيّ » منزله فى رَوْنَق الصبح ، آخذاً سَمْتَه إلى حارة « كفر الطماعين » حيث تقع « مدرسة المكْرُمَاتِ العالية » التى يتلقّى فيها تعليمه الابتدائى . ولما قارب دارَ المدرسة ألفَى رفاقَه منتشرين هنا وهنالك ، يتحدثون ويتلاعبون ، انتظاراً لدَقّات الناقوس .

واسترعَى انتباهَه لفيف منهم قد أحدَقوا بعربة « عم عُصْفور » بائع الحلوى وأدوات الكتابة ، فاندسّ بينهم يتبيّن ما يشترون ، وما لبث أن ابتاعَ من الرجل قطعة من « الشكولاته » حَشَا بها فمه على الفور .

وراعه مما احتوتْه العربة طائفة من أقلام المِدَاد زاهيةُ الألوان ، ساطعةُ اللمعان . . . فرنا إليها فى شَغَف ، ولم يستطِعْ مغالبةَ نفسه ، وهى تراوِدُه أن يظفرَ بواحد منها ، فأقبل على « عمّ عُصْفور » يسأله ، وقد أشار إلى قلم وقع عليه اختياره : أَرِنِى هذا القلم . . .

— أتريد شراءه ؟

— سأنظر .

— إنه لا ينفعك . . . هو للمدرّسين وللتلاميذ الكبار .

— دَعْنى أَرَهُ . . .

فانتزع الرجل هذا القلم المختارَ من بين الأقلام ، ودفع به إلى الصبيّ ، فأخذه منه يقلبه بين يديه مشبوبَ النفس ، وسرعان ما تذكّر أن معلّمَ الإملاء يحمل مثل هذا القلم ، عامراً بمداد أحمر . فالتمعتْ عيناه ، وخفق فؤادُه ، وضرب بيده فى جيبه يعدّ ما فيه من النقود ، فإذا هى بضعةُ قروش ، فهمهم قائلا : بكم هذا القلم يا « عم عصفور » ؟

— بثلاثين قرشاً . . .

فَبُهِتَ الصبيّ ، واهتزّ القلم فى يده ، ولم يجد بُدًا من أن يعيدَه إلى الرجل فى أسف وحسرة ، فعاجله البائع مستدرِكا يقول :

ولكنى من أجلك أبيعُكَ إياه بخمسةَ عَشرَ قرشاً . . . بنصفِ ثمنه . . . أنتَ زَبُون حَسَنُ المعاملة !

فأخرج الغلام كل ما فى جيبه ، وجعل يُحْصِى قروشه ، فألفاها خمسة كاملة ، فألقَى بها إلى الرجل ، وهو يقول له :

هاكَ ما معى الآن ... وغداً أنقدُكَ ما بَقِىَ .

— لا بأسَ يا سيّد « دعبس » . . . طَلَبُكَ مُجَاب .

— ولكن لا بدَّ للقلم من مداد أحمر !

— إليك زجاجةً بقرش ، يبيعها غيرى بثلاثة قروش .

— شكراً لك يا « عم عصفور » . . . موعدُنا غداً إن شاء الله .

وانطلق الصبيُّ بالقلم وزجاجة المِداد ، يتواثبُ نحو المدرسة ، والدنيا لا تسع فرحتَه وابتهاجه .

وما كاد الصبيّ يأخذُ مكانَه من فصله ، حتى أعلن الناقوسُ ابتداء الدراسة ، فتوافد التلاميذُ على فصولهم ناشِطين ، فلم يستطع الصبيُّ إلا أن يُخْفِيَ القلمَ فى جيبه والزجاجةَ فى قِمَطْرِه ، تأهُّباً لِاستقبال الدروس .

على أنه لم تكد تَحِلُّ فترة الراحة بين الحصص ، فينصرفُ التلاميذ إلى فِناء المدرسة يَشْغَبُون و يلعبون ، حتى لزم هو كرسيَّه ، خالياً بنفسه . وأقبل على قلمه يَعْمُره بالمداد الأحمر .

و بينما هو كذلك ، إذ مَرَّ من جانب الفصل ضابطُ المدرسة ، فلمحه قابعاً فى ركنه ، فصاح به : ماذا يُبقيك هنا يا ولد ؟

فأسرع الصبيّ يخفى ما فى يده ، قائلا : لا شىء . . . سأخرج !

ولم يبرح الضابط مكانه ، حتى انجلى الصبيُّ عن فصله .

وفى فترة الغَداء ، عند الظهيرة ، تفرق التلاميذُ يتناولون الطعام ، فانتهز « دعبس الكومى » هـذه الفرصةَ ، ولم يُنْفِقْ من وقته فى تناوُلِ طعامه إلا لحظاتٍ قلائل ، وأمضى بقيةَ الوقت قابعاً على كرسيِّه يُمتِعُ نفسَه بإجراء القلم الجديد على الصفحاتِ البيض ، يُبَرْقشها بذلك المِداد الوردىِّ الزاهى .

وقُبَيْلَ استئناف الدروس ، مَرَّ عن كَثَبٍ منه أحدُ أقرانِه ، فقال له : أتعبَثُ بالكتابة ، وعليك أن تحفظَ جدولَ الضرب لتُمْتَحَنَ فيه اليومَ ؟ .

فأشرع الغلامُ عينيه ، وأجاب قرينه فى دهشة :

وهل موعدُ الامتحان اليومَ ؟

فقهقه الصبىُّ قائلا : أليس اليوم يومَ الأربعاء ؟ . . . يبدو أنك مشتاق إلى مِسْطَرَةِ « مبروك أفندى » !

— ما هذا المِزَاحُ الثقيل ؟ الامتحانُ غداً .

— بل اليوم ... أُصْحُ من نومك !

واستبان لـ « دعبس » أنه كان غافلا ، وأن الامتحان يَجْرِى اليومَ حقًّا ، فارتجفتْ أوصاله ، وتراءت له مِسْطرة معلِّم الحساب ، المعروفِ بالشدَّة فى العقاب !

فانبرى يقلِّب دفاتره بحثاً عن جدول الضرب ، وهو مضطرب متفزِّع . . . ولما وجده أكبَّ عليه يحاول استذكاره ، ولكنه ألفى بصره يزيغ ، وأحسَّ برأسه يدور .

ورَنَّ الجرس فى هذه اللحظة ، فارتفعتْ جَلَبَةُ التلاميذ فى تدافعهم إلى الفصول ، وهم يردِّدون الأرقامَ فى أنفاسٍ متلاحقة .

وتجلَّى « مبروك افندى » على عتبة الفصل ، صائحاً فى عنف :

صَمْتاً يا مَلاعين !

فانقطع الصَّخَب ، وساد السكون ، وتعلَّقت الأنفاس . . . فدخل المعلم كالنَّمِرِ المتخطِّر ، شاهراً فى يده مِسْطَرته التى ذاقَ التلاميذُ من سطوتها لَذْعَ النار . . . وقد أزاح طربوشه إلى الخَلْف ، فظهرت قُصَّتُه شَعْثاء مغبرَّة ، تزيده غِلْظةً ورهبة .

وما عَتَّمَ «مبروك أفندى» أن ابتدأ يمتحِنُ الغلمان ، فسأل أحدهم :

٩ × ٧

فتلعثم المسئول ، فهجم عليه المعلم يقول له : ابسُطْ يدَك . . .

فقبضها الغلامُ خلفَ ظهره ، وهو يحمجم فى استرحام . ولكن « مبروك أفندى » لم يَعْجِزْ عن بَسْطِ تلك اليد العَصِيَّة ، والإنهيال عليها ضرباً بالمسطرة ، فكان وقْعُ الضربات يمازج نَشِيجَ الغلام

وصياحه ، ويؤلِّف لحناً مفزِّعاً يبعث الخشية فى أرجاء الفصل جميعاً .

وأحسَّ « دعبس الكومى » فى هذا الوقت بأن يدَه كأنما لَسَعَتْها عَقْرَب !

ونادى المعلم اسماً جديد ، وهو يقول : ٧ × ٩ . . . أَجِبْ !

فنطق التلميذ فى جرأة يجيبُ بقوله : ٧٩

فإذا المعلم فى خَطْفَةِ البرق ينتفض ، وإذا هو أمامَ التلميذ وجهاً لوجه ، يقول له : جيِّد جدّا . . . ستنال تسعاً وسبعينَ ضربة !

وجعل يكيل له الضرباتِ عَشْوَاء ، والتلميذ يتلوَّى ويَجْأَر . . .

وبينما كان ذلك يجرى فى ركن من الفصل ، كان « دعبس الكومى » يُمِرُّ يدَه على جبينه ، والعَرَق يرفَضُّ منه فى غزارة .

ومضى « مبروك أفندى » يتنقَّل بين أسماء التلاميذ ، ممتحناً إياهم فى نشاط وحماس ، وما هى إلا أن سمعَ « دعبسُ الكومى » اسمَه يَرِنُّ فى الفضاء ، فوقف مُرْعَشاً ، فصاح به المعلِّم يقول : ٦ × ٨

فَشَعَرَ الصبىُّ بأن لسانه قد اعْتُقِلَ ، وأن الأرضَ تَدُورُ به ، فأعاد المعلم سؤالَه فى صوت جَهِير : ٦ × ٨ ...انْطِقْ يا ولد .

فأخذتْه نَوْبَةُ إجهاش ، ولسانهُ يتعثَّر بهذه الكلمات :

والله العظيم يا أفندى نَسِيتُ أن آخُذَ جدولَ الضربِ معى أمسِ

لأحفظه . . . والله العظيم يا أفندى سأحفظه !

فأزهرتْ عينُ المعلم الغيور ، ورفع يده بالمسطرة ليُهوِىَ بها على التلميذ .

وهنا اهتزَّ الغلام فى موقفه اهتزازةً سقط على أثرها قلمُه الجديد ، وما أسرع أن أدلَى المعلم بنظره يتبيَّنُ الأمر ، فبهرتْ عينُه لمعةَ القلم وهو يتوهَّج فى وَضَح النهار ، فانحنَى عليه يلتقطه ، وطفِق يتفحَّصُه وقد بدتْ عليه أمارة الاهتمام . . . على حينِ كان « دعبس الكومى » يرتعدُ من فَرْطِ الخوف .

ورفع « مبروك أفندى » رأسَه عن القلم ، وهو يهمهم :

عرفتُ الآنَ ما ذا يُلهيكَ عن حفظ جدول الضرب . . . هذه الأقلام . . . بِدْعَةُ آخرِ الزمن !

وأراد الغلام أن يتكلم ، فاستعصَى عليه القول ، وهمَّ بأن يَمُدَّ يدَه ليأخذَ قلمه من المعلم ، فارتفع صوت « مبروك أفندى » قائلا :

قَسَماً لا جزاء عندى لمن أجد عنده قلما كهذا إلا أشدُّ العقاب !

واستدار يخطو إلى منصَّتِه ، فى صَدْرِ الفصل ، وهو يتنحنح وَيَسْعُل . . . فأما القلم فقد تسلل إلى جيب « مبروك أفندى » ليأخذَ فيه قَراره المكين .

وشَغَلَ المعلم نفسَه فترةً بما بين يديه من دفاتر وأوراق ، ثم تكلم خافت الصوت يقول : اجلسْ يا « دعبس » . . . سامحتُكَ هذه المرَّة . . . إياكَ أن يلهيكَ شيء عن واجبك !

وهَوَى التلميذ على مقعدِه ، وهو فى غمرة من حيرة وذهول .

واستأنف المعلم نداءه للأسماء ، وإجراءه للامتحان ، حتى دَقَّ الناقوس ، أذَانًا بانتهاء الدرس . . . فنزل « مبروك افندى » عن المِنَصَّة ، واتخذ سبيلَه إلى الباب ، يخطو كالنمر المتخطِّر ، تتقدمه قُصَّتُه الشعثاء ، وتتراقصُ فى يده مِسْطَرَتُه العاتية !

وما كاد يتوارَى عن الأنظار ، حتى علا نَحِيبُ «دعبس الكومى» و بين جنبيه من الغيظ جَمْرَة تتلظَّى...

فسأله أحد الرفاق : أتبكى وقد نَجَوْتَ من المِسْطَرَة ؟

فنظر إليه الغلام مُغْضَبًا ، دون أن يَنْبِس .

وما لبث أن أمسكَ بزجاجة المداد الأحمر ، وقَذَف بها من النافذة ، وهو يَعَضُّ على يده ، والتلاميذُ مِن حوله فى ضَجَّة يتضاحكون . . .

فهرس

صفحة

شباب وغانيات ٥

شيخ الزاوية ١٤٧

كبْشُ الفداء ١٦٣

ضَرْبُ الحبيب ١٨١

جنازة حارَّة ١٩٥

طريق إلى الحب ٢٠٧

مسطرة « مبروك افندى » ٢١٧

أحدث مؤلفات

محمود تيمور

مجموعات قصصية :

كل عام وأنتم بخير

إحسان لله

خلف اللثام

شفاه غليظة

بنت الشيطان

مكتوب على الجبين

فرعون الصغير

قال الراوى

شباب وغانيات

قصص تمثيلية :

ابن جلا

اليوم خمر

حواء الخالدة

المخبأ رقم ١٣

سهاد

المنقذة

عوالى

قنابل

أبو شوشة والموكب .

قصص مطولة :

كليو باتره فى خان الخليلى

سلوى فى مهب الريح

نداء المجهول

صور وخواطر :

ملامح وغضون

أبو الهول يطير

عطر ودخان

فن القصص

#23283350

DATE DUE

DEMCO 38-297

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

MAR 69
N. MANCHESTER,
INDIANA

NYU - BOBST
31142 02908 1729
PJ7864.A5 S43
Shabab wa-